القسم الرابع
العربية الشرقية
الفصل الثاني عشر
حراسة الخليج العربي

اشتهر الخليج منذ القرن الثامن عشر بقراصنته القساة، وبتجار الرقيق، وبعد ذلك بلؤلئه ذي الألق النادر، وهو اليوم معروف بغزارة بتروله. «فبترول الشرق الأوسط» يكاد معظمه يأتي من آبار جنوب العراق وإيران، ومن الحقول المترامية الأطراف في الكويت والأحساء. وأكثر من نصف احتياطي العالم مدفون في أرض تأخذ شكل هلال سحري يغتسل في مياه الخليج، التي تشق عبابها ناقلات النفط التي تأتي إلى الفاو، أوبندر شاهبور، أو ميناء الأحمدي، تبحث عن حمولتها الخطيرة. وقبل أن تصل إلى الموانئ المذكورة، تسير الناقلات المملوءة بالمياه المالحة مسافة أكثرمن ١٦٠٠ كم، بموازاة ساحل عمان، قبل أن تلج مضيق هرمز، عند رأس مسندم، التي هي آخر مناطق نفوذ سلطان مسقط، وفي الوقت نفسه آخر مركز حراسة ثابت في مدخل الخليج العربي .

إن سلطنة مسقط وعمان، التي تقع بين صحراء الربع الخالي وبحر العرب، تشكل الطرف المحدب لهذه الكتلة التي تشكلها الجزيرة العربية. وهي، شأنها شأن حضرموت، تتجه نحو شبه القارة الهندية بسبب الصحراء التي لا يمكن تجاوزها نحو الداخل. ولم يخطئ البريطانيون في تقدير أهميتها الاستراتيجية الكبيرة، فضموها إلى منطقة نفوذهم منذ القرن الثامن عشر الميلادي. وكان استقرارهم في مسقط

عام ١٨٠٠م نقطة الانطلاق [١٧٦]للسيطرة على المنطقة إبَّان القرن التاسع عشر. واليوم، في النصف الأول من القرن العشرين، استطاعت بريطانيا بعد صراع طويل إزاحة كل القوى، وخصوصاً المنافسة الفرنسية.

مازالت بريطانيا، حتى يوم الناس هذا، بعد خروجها من الهند، والأزمة الإيرانية، وعلى الرغم من انحسار نفوذها في الشرق الأوسط، والمكانة المميزة التي حصلت عليها بسرعة الولايات المتحدة الأمريكية فيه، القوة الأساسية في المنطقة، التي يتحكم سلطان مسقط وعُمان بالدخول إليها، وقد رأينا ذلك خلال صيف عام ١٩٥٧م، عندما سارعت القوات الجوية والبرية البريطانية لمساعدة السلطان ضد تمرد القبائل العمانية في الداخل.

إنها سلطنة غريبة، لا حدود لها، مستقلة نظرياً، وقواتها المسلحة تحت قيادة الضباط البريطانيين، ووزير خارجيتها اسمه نيل أينس Neil Innes، وفيها قنصل صاحب الجلالة، الخاضع لسلطة المقيم السياسي البريطاني في الخليج. وإن اسم الدولة نفسه غامض، فهو يجمع بين اسم العاصمة، التي يسكنها ٣٠٠٠ نسمة، واسم داخل البلاد، الذي تبلغ مساحته ١٠٠ ألف كم مربع. وإن عدم وضوح حدود السلطنة بدقة، وصل حداً جعل أكثر المصادر تذكر أن مساحتها تبلغ ٢٠٠ إلى ٢٢٠ ألف كم مربع، بينما تؤكد شركة العراق بتروليوم، صاحبة امتياز التنقيب عن البترول فيها، أن مساحتها لا تقل عن ٣٥٠ ألف كم مربع. وقد كان السلطان غالباً بحاجة إلى الدعم البريطاني لفرض سلطته في جبال عُمان، التي تسكنها قبائل شديدة البأس. وإن إقليم ظفار الواقع في أقصى غرب السلطنة، قرب المهرة، التي تتبع محمية عدن الشرقية، والمدينة الرئيسية فيه صلالة، التي تعد المقر الصيفي للسلطان. ويتكون الداخل من تلال معشبة، تنمو فيها شجرة البخور نمواً طبيعياً منذ قرون لا تعيها الذاكرة البشرية. أما شبه جزيرة مسندم فإنها تقع في مدخل الخليج، وهي عبارة عن مركز متقدم، لا يتصل مباشرة مع بقية أنحاء السلطنة. وتلك أيضاً حالة

غوادر Gwadar، وهي جيب تبلغ مساحته ٨٠٠ كم مربع، يقع [١٧٧] على الطرف الأخر من خليج عمان في بلوشستان(باكستان).

إن أقسام السلطنة المختلفة تنضوي تحت لواء مسقط، وهي شريط بحري عربي تكتنفه الجروف، وأفضل ميناء طبيعي في المنطقة. وعلى بعد عدة كيلومترات إلى الشمال تقع قرية مطْرح، وهي أهم مركز تجاري في السلطنة. ويقع بين هذه المدن، وبين حدود ساحل القراصنة، سهل باطنة الساحلي، الذي تنتشر فيه بساتين النخيل. وهي المنطقة الوحيدة الخصبة في ساحل شديد الحرارة، ذي مناخ لا يحتمله الأوروبيون. وتُشتهر مسقط و مطرح بأنهما أشد مدن الجزيرة العربية حرارة، والبريطانيون القلائل، الذين يسكنون هناك لا ينفكون يكررون المبالغات التي جاء بها زائر فارسي في القرن الخامس عشر، عندما قال: «كان الحر شديداً حتى إن النخاع يغلي داخل العظام؛ والسيف يذوب في غمده كأنه الشمع، والأحجار الكريمة التي تزين الخنجر الصغير تتحول إلى فحم. وأصبح الصيد في السهل أمراً في غاية السهولة، لأن الصحراء كانت مملوءة بالغزلان المشوية بحرارة الجو»[1] . وكميات الأمطار التي تهطل فيها قليلة جداً، لأن الجبل الأخضر العالي، يشكل حاجزاً يوقف السحاب المحمل بالأمطار ليوزع مياهها على ساكنيه. وقد رأينا في بعض الأحيان على القمم التي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠٠ متر هطول الثلوج. وإذا اتجهنا إلى الداخل، فيما وراء السلسلة الجبلية، يبدأ العلو بالانخفاض تدريجياً، حتى يتصل في النهاية برمال الربع الخالي ذات اللون الأمغر.

قلة قليلة من الأوروبيين زاروا منطقة الجبل الأخضر، ولم يستطيع أحد أن يعرفها حق المعرفة. يبلغ عدد سكانها الذين ربما كانوا من العرب الأول، بين أربع إلى خمس مئة ألف نسمة، وهم ، ومربو مواشي، وينتمون إلى

(١) الزائر الفارسي هو عبد الرزاق الذي زار مسقط عام ١٤٤٢م. الدباغ، ج٢، ص ١١٧- ١١٨ . وقد نقل النص عن كتابنا هذا (المترجم).

المذهب الإباضي، ويخضعون لسلطة إمام خاصٍ بهم. أما التركيب الاجتماعي، فهو حتماً التنظيم القبلي، لأن الوصف الذي قدمه جيمس موريس James Morris الذي رافق سلطان مسقط في جولته عام ١٩٥٥م، يشير إلى أن عدداً من الشيوخ نزلوا من جبالهم ليعربوا عن ولائهم للسلطان[١] . والسكان في المنطقة الساحلية الضيقة على خليج عمان، خليط عجيب من الأعراق: فالعرب، والبلوش، [١٧٨] والفرس، والأفارقة، هم في المدن بأعداد تكاد تكون متساوية. أما في ظفار والباطنة فالعرب هم الأغلبية. ومجموع عدد سكان السلطنة يصل إلى ٥ أو ٦ مئة ألف نسمة.

الفقر وجنون البترول

كما كان آباء سكان ساحل خليج عمان، يعيشون بانتظار صيد ثمين، فإنهم يعيشون هم اليوم بانتظار اكتشافات جديدة من «زيت الأرض». ويساعدهم هذا السراب الدائم على تحمل الفقر المدقع. إن أكثر المناطق سكاناً، هي المناطق السهلية، التي يهطل المطر فيها، والصالحة للزراعة في ظفار، والجبل الأخضر، والباطنة، والتي تنتج أشجار النخيل فيها أنواعاً من التمور مختلفة الطعم والرائحة؛ كما هي الحال في الواحات[٢] الكبرى كلها، ويمكن أن يزرع في ظلالها أنواع مختلفة من الفواكه والخضار. وتشكل الحمضيات، والتمور، وأنواع الحبوب أهم المنتجات الزراعية في البلاد. وفي الداخل، كما في اليمن، تتنوع الزراعات، باختلاف درجة الارتفاع، فيزرع السكان المدرجات الجبلية، التي تُروى حسب طرق بدائية جداً. ويعمل الحضريون جميعاً في زراعة منحدرات الجبل الأخضر، أو في الأودية المحمية من هواء

(١) جيمس موريس: سلطان عُمان، فابر، لندن، ١٩٥٦م.- وانظر أيضاً: رودريك أوزن، الفقاعة الذهبية، كولنس، لندن، ١٩٥٧م.

(٢) مفردها : واح وجمعها : واحات على غير قياس، قال ياقوت في معجم البلدان(الواحات) ولا أعرف معناها، وما أظنها إلا قبطية. وليس في المعاجم العربية ما شاع من أن مفردها واحة(المترجم).

الصحراء اللافح. وفي هذه المنطقة يُنتج عنب مسقط، التي دخلتها شجرة الكَرْمة على أيدي الغزاة البرتغاليين، الذي مروا عليها في القرن السادس عشر.

وعلى الساحل، تحول السكان الذين ينحدرون من نسل القراصنة الشرسين، إلى صيادين مسالمين، وإلى غاصة متمرسين على اللؤلؤ، وإلى بحارة. ولكنهم لم يتخلوا عن التهريب، ونقل الأسلحة عندما تسنح لهم الفرصة، على الرغم من الحراسة التي تقوم بها الحراقات البريطانية. وإن كثرة الأسماك على الساحل، تجذب قسماً كبيراً من سكانه، الذين يجدون في الصيد موارد للعيش، وغذاء. فالشتاء الذي يجعل ماء المحيط باردة، ويدفع الأسماك الصردة نحو مياه الشواطئ الدافئة، هو موسم صيد السردين، الذي يمارسه الصيادون من مضيق باب المندب حتى مضيق هرمز. ويصطادون أيضاً، وبكثرة [١٧٩] سمك القرش، الذي تُصَدَّرُ زعانفه المجففة والمملحة إلى الصين. وتُنْقل أنواع أخرى من الأسماك نحو الداخل لبيعها.

لقد اختار سلطان مسقط، بسبب تجارته الخارجية الموجهة نحو الهند والشرق الأقصى، الروبية الهندية عملة رسمية في سلطنته؛ ولكن سكان الداخل، كما هو الحال في محمية عدن، وفي اليمن، يفضلون التعامل بريال ماريا تيريزا، إمبراطورة النمسا، الفضي اللامع، والمسمى تلر. تصدر عمان التمور، والحمضيات، والسمك المجفف. وتستورد الأرز، والمنسوجات القطنية، والقمح، والبن.

إن الخط البحري بين بومباي والبصرة لشركة بريتيش أنديا ستام نافيغيشين British India Steam Navigation Company، يمر بميناء مسقط، الذي تمر به أيضاً سفن شركة ستريك لاين F. Strick Line، وسفن شركة لانوفيل كومباني هافريز بيناسولير دو نافيغاسيون La Nouvelle Compagnie Havraise Pénisulaire de Navigation.. وتقوم مراكب السكان المحليين بعمليات نقل مستمرة بين موانئ السلطنة، وموانئ البلاد المجاورة للخليج، وباكستان. ويغامرون بالذهاب حتى جزيرة زنجبار، مجتازين

المحيط الهندي، كما كان يفعل بحارة مسقط القدماء، الذين كانوا يذهبون لمهاجمة المستعمرات البرتغالية في شرق أفريقيا .

لقد أنشأ الحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية، مدرجات لهبوط الطائرات في صلالة، وفي جزيرة مصيرة، على الساحل الجنوبي لعُمان. وأصبحتا قاعدتين لسلاح الجو الملكي البريطاني، الذي استأجرهما من السلطان مقابل عائد سنوي مقداره ٦ آلاف جنيه إسترليني. وهناك مدرج أخر قرب مطرح، يُستخدم للنقل الجوي المدني، ولا يمكن استخدامه إلا بعد علم مسبق، لا يقل عن ٤٨ ساعة، وبعد الحصول على موافقة السلطان. ولا يوجد في السلطنة حتى اليوم طريق معبدة تستحق هذا الاسم، إذا استثنينا السبعة إلى ثمانية كيلومترات، التي تربط مسقط بمطرح؛ وإن الجولة المأثورة، التي قام بها السلطان سعيد بن تيمور في ديسمبر«كانون الأول» ١٩٥٥م، وعبر خلالها السلطنة من جانب إلى أخر، كانت أول اتصال بري بين ظفار ومسقط، بالالتفاف حول السلسلة الجبلية من الشمال. ومنذ ذلك الحين، أجبر التنقيب عن البترول الشركات صاحبة الامتيازات في ظفار وعُمان، على شق بعض الطرقات، من الساحل إلى الداخل.

[١٨٠] امتيازات وتنافس

حتى عام ١٩٥٣م، كانت شركة بتروليم ديفلوبمنت(عُمان) ليمتد Petroleum Development (Oman) Limited، فرع من شركة العراق بتروليوم، هي صاحبة الامتياز الوحيد للتنقيب عن البترول في السلطنة. ولم يؤدِ السبر الذي قامت به إلى أي نتيجة، فتنازلت في ظروف غامضة عن الامتياز، الذي يغطي منطقة ظفار للسيد وندل فيليبس، الذي باعه بدوره لشركة سيتيز سيرفيس أويل كوربوريشين.Cities Service Oil Corporation . ويبدو أنه انتقال الامتياز كان له آثار

حاسمة في تـطور عمليات التنقيب. لقد أعلنت شركـة سيتيز سيـرفيس، خلال سنة ١٩٥٧م، بلهجـة المنتصر، بعد سنوات من السـبر والحفر، عن اكـتشاف كمـيات من البترول صالحة للاستثمار التجاري في منطقة امتيازها. وحمل التغلغل إلى داخل ظفار الشركة على إنشاء بنية تحتية أولية من الـطرق تتيح لها ذلك، وإذا تأكد البدء باستثمار البترول، فإن الإقليم البعيد موعود بتطور سريع. وينبغي لهذا الأمر أن يعزي السلطان سعيد عن خيبة الأمل التي أُصيب بها في عُمان.

لقد ساد الاعتقاد طويلاً، أن المناطق الجـبلية الثائرة في عُمان، هي المناطق التي يُحتمل وجود البـترول فيها. وهكذا هم البشـر، لا يتطلعون إلا لما هو صعب المنال. إن التنقيب الذي جرى في ظروف مـضنية، بسبب عدم الاستـقرار والخوف، أدى في ديسمبر«كانون الأول» ١٩٥٥م، إلى عملية صاعقـة أفضت، بعد حملة خاطفة مولتها شركة البترول، إلى عزل إمام عُمان، زعيم القبائل الثائرة. أما في الشمال فقد احتلت قوات من السكان الأصليين، تحت قيادة بريطانية، على واحة البريمي. لقد مهدت هذه الأعمال الطريق لإقامة جسر جوي، نقل البريطانيون بوساطته على وجه السرعة أطناناً من معدات الحفر إلـى فهود، بينما كان العمال يشقـون الطريق بين الساحل ومعسكر الحفر. إن التنقيبات الأولية، الجيولوجية، والجيوفيزيائية، التي عينت المواضع المختارة لإجراء الحـفر، كـانت مشجـعة، وبشـرت بنتائج سـريعة وملمـوسة. وبينمـا كانت السلطات البريطانية تضع يدها علـى المناطق الداخلية، وتزيح الإمام المتمرد، متـخفية وراء سلطان مسقط [١٨١] كـثر الحديث عن فهود والآمـال المعقودة عليها لاكـتشاف مخزون بترولي غزير. وبعد ثمانية عشر شهراً، دلت المعلومات المستقاة من مقر شركة العراق بتروليوم، أن هذه الآمال لم تكن في موضعها.

في شهر يونيو«حزيران» ١٩٥٧م حُفِر بئران، وصل عمقهما إلى ١٢ ألف قدم، دون الوصول إلى الجـيوب البـترولية المنتـجة، ولا حتى إلى دلائـل مبشـرة. وكانت

الاستعدادات جارية لنقل آلات الحفر عندما أدت عودة الإمام غالب، في يوليو«تموز» ١٩٥٧م إلى اندلاع نار الثورة في عُمان. وفي نهاية العام كانت المعدات قد نقلت إلى الشمال. ولم يكن عدم نجاح عمليات الحفر التي أجريت يعني أن البترول لا وجود له في فهود، لذلك يستمر التنقيب، يحدوه بعض الأمل في اكتشاف البترول. لقد بدأ صبر السلطان ورعاياه ينفد شيئاً فشيئاً، وهم يرون الثراء الفاحش في الإمارات الأخرى التي اكتشف فيها البترول. لقد حل جنون البترول في كل زاوية من زوايا الجزيرة العربية الغامضة، ودفع أمراءها البدوَ إلى نزاع مرير على الأرض، وهي نزاعات تشبه ما كان يجري بين المزارعين في أوروبا. ولكن المراهنات هنا مختلفة بالطبع كل الاختلاف.

إمبراطورية سلاطين مسقط المندثرة

كان اكتشاف البترول بمثابة ولادة جديدة لبلد السيد سعيد بن تيمور، سلطان مسقط، الذي ورث في عام ١٩٣٢م سلطنة خائرة، يفتك بها الفقر. وسعيد هذا رجل قليل الكلام، صبور، يهتم بتطوير السلطنة، كثير الأحلام والمشروعات، يدونها على دفاتر صغيرة يدسها في جيبه. ولا يعرف أحد مقدار موارده، التي ينبغي أن تكون متواضعة جداً، لأنها تُجبى أساساً من المكوس الجمركية، ومن الإيجارات السنوية، التي تدفعها له الشركات البترولية صاحبة الامتيازات. «إنه يقوم بجولات كثيرة، ويمشي مستغرقاً في أحلام اليقظة، ويحدث نفسه قائلاً: عندما سيسيل النفط نحو البحر سيكون هنا سد، وهناك طريق، وفي هذه الساحة مدرسة، وأبعد قليلاً مستشفى. وستعود من جديد عُمان الغامضة، التي يتجاهلها الناس، بلداً عظيما». [١٨٢] كان الأوروبيون يجهلون تاريخ عُمان جهلاً تاماً قبل أن يحتل البوكيرك العظيم، مسقط في عام ١٥٠٨م. ويذكرنا اليوم حصن برتغالي، مازال قائماً

هناك، أن مسقط كانت، إبان قرن ونصف، تضم وكالة برتغالية تجارية[١]، سيطرت على تجارة الخليج العربي كلها، وكانت قاعدة للغزاة البرتغاليين ليتغلغلوا نحو الداخل. وفي حوالي سنة ١٦٥٠م[٢]، انتفض العرب العُمانيون، وطردوا المحتلين الأجانب. ومد العمانيون سلطتهم بالتدريج، حتى بلغت عام ١٧٣٠م الممتلكات البرتغالية كلها في إفريقيا الشرقية، مقديشو، وممباسا[٣]، وجزر مافيا[٤]، وزنجبار[٥] . وبعد فترة احتلال فارسي قصيرة من ١٧٤١م إلى ١٧٤٣م، جاءت الأسرة الحاكمة[٦] الحالية من الجبال، وأنشأت سلطنة مسقط.

وفي نهاية القرن الثامن عشر الميلادي استولى السيد سلطان[٧]، جد الحاكم الحالي، على مسقط، وعلى المنطقة الساحلية، وعَبَرَ الخليج لاستعادة جوادر، وقشم،

---

(١) تعرف هذه الوكالة بكينج : انظر عمان كتاب من إصدار وزارة الإعلام العمانية، سنة١٩٩٢م، ص٢٦ (المنيف).

(٢) في ٢٣ يناير«كانون الثاني» ١٦٥٠م شن الإمام سلطان بن سيف [الصحيح : سيف بن سلطان اليعربي] هجوماً عنيفاً على البرتغاليين واستولى على قاعدتي الجلالي والميراني. انظر كتاب: عمان وشرقي إفريقية، م.س. ص ٦٤ .

(٢) جزيرة ممباسا، تكتب بالألف الطويلة وبالتاء المربوطة، وقد كتبناها بالألف الطويلة تبعاً لمبارك بن علي الهنائي، . في كتابه: العمانيون وقلعة ممباسا، سلسلة تراثنا، العدد التاسع، وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، ترجمة محمد أمين عبد الله، يوليو«تموز» ١٩٨٠م. وانظر كتاب: عمان وشرقي إفريقية، م. س.، ص ٧٧-٧٩، وفيه أن الإمام سيف بن سلطان استولى على قلعتها في ديسمبر«كانون الأول» ١٦٩٨م(المترجم).

(٣) انظر كتاب: عمان وشرقي إفريقية، م.س.، ص ٥١(المترجم).

(٤) المصدر السابق، ص ٧١-٧٦، وقد قرر السلطان سعيد بن سلطان اتخاذ زنجبار عاصمة له والإقامة فيها عام ١٨٣٢م بسبب موقعها التجاري الرائع، وغناها بمياه الشرب النقية، وغير ذلك(المترجم).

(٥) يعني أسرة البوسعيد، التي انتخب أحد وجهائها أحمد بن سعيد بن محمد البوسعيد إماماً في عام ١٧٤٤م، وهو مؤسس الأسرة، واستمر حكمه ٣٩ عاماً، وتوفي عام ١٧٨٣م(المترجم).

(٦) سلطان بن الإمام أحمد بن سعيد البوسعيدي ١٢٠٦-١٢١٩هـ/ ١٧٩٢-١٨٠٤م. انظر كتاب: بريطانيا والخليج ١٧٩٥-١٨٥٠م، جون ب. كيلي، ترجمة محمد أمين عبد الله، نشر وزارة التراث القومي والثقافة في سلطنة عمان، د. ت. ج١، ص٢٥ وما بعدها(المترجم).

و شهبار ، وهرمز. وظل إمام الرستاق[1]، الزعيم الديني، مسيطراً على الداخل، ولكن السيد سلطان كان يسيطر على جانبي مضيق هرمز، وعلى الجزر، وامتدت إمبراطوريته حتى إفريقيا. لقد كانت تلك الحقبة تشهد تنافساً محموماً لبسط النفوذ في منطقة الخليج العربي، وفي مناطق أخرى، بين الفرنسيين والبريطانيين، وكان نابليون الأول يحلم بانتزاع إمبراطورية الهند من البريطانيين، فأرسل«العريف القصير» مبعوثيه إلى مسقط[2]، ولكن البريطانيين كانوا أسرع منه إذ نجحوا في عام ١٧٩٧م في عقد أول اتفاقية صداقة مع السلطان، وكان الهدف الرئيسي من الاتفاقية، الوقوف في وجه الطموحات النابليونية، ثم الوقوف في وجه التجار الهولنديون. وفي عام ١٨٠٠م، سُمح لأول مقيم سياسي بريطاني بالإقامة في مسقط. حينئذٍ، بدأ البريطانيون تنظيم حملتهم لمحاربة القرصنة، التي كانت تضر بمصالح شركة الهند الشرقية البريطانية، وبدأت بريطانيا منذ ذلك الوقت تؤمن الحراسة الدولية في الخليج العربي، بمساعدة حلفائها المحليين. لقد كانت مصلحة البريطانيين المؤكدة، تكمن في ضمان مرور آمن لسفنهم في مضيق هرمز، وإن دخول الخليج العربي يؤمن لهم التغلغل في الشرق

(١) عاصمة دولة إمامة عُمان، ومنها انتقلت العاصمة إلى مسقط، نقلها حمد بن سعيد (١١٩٩هـ / ١٧٨٤م ـ ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢م) البوسعيدي. وانظر في قضية الإمامة والسلطنة ولقبي الإمام والسلطان كتاب: بريطانيا والخليج، موثق أعلاه، ج١، ص ٢٢-٢٦، وفيه: أن الرستاق هي البلدة الوحيدة إذا استثنينا نزوى وصحار التي يجوز فيها إقامة صلاة الجمعة، وأصبحت لذلك العاصمة الطبيعية لعمان، واختيرت لتكون مقراً لحكومة البلاد. والمقصود بإمام الرستاق هو سعيد بن أحمد بن سعيد، الذي استمر في حكم الرستاق حسب الاتفاق الذي وقعه أبناء أحمد بن سعيد الثلاثة في بلدة بركا عام ١٧٩٣م، والذي أعطى صحار لقيس بن أحمد، والرستاق لسعيد، ومسقط لسلطان. انظر جون كيلي، بريطانيا والخليج، ج١، ص ٢٣ . (المترجم).

(٢) في عام ١٧٩٩م، وجه بونابرت خطابين إلى سلطان بن أحمد، وتيبو صاحب يبلغهما بأن أي سفن تصل إلى السويس من بلديهما سوف تلقى كل تسهيل ومساعدة، كما وعد الأخير بتقديم المساعدة إليه في صراعه ضد البريطانيين. انظر جون كيلي، بريطانيا والخليج، ج١، ص١٠٣-١٠٤ . وانظر نص الرسالتين في كتاب: سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ١٧٩١-١٨٥٦م، تأليف رودولف سعيد روت، ترجمة عبد المجيد حسيب القيسي، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، العراق، ١٩٨٣م، ص ١٤١-١٤٢(المترجم).

الأوسط من البـاب الخلفي[1] . ويمنع في الوقت نفسـه[١٨٣] أي قـوة أخـرى من السيطرة على المنطقة، مما يشكل خطراً على اتصالاتهم البـحرية والبرية مع إمبراطورية الهند، لقد كان ذلك ما يؤرق رجال السياسة والدبلوماسيين البريطانيين جميعاً.

لقد شهـدت الإمبراطورية البحرية لسـلاطين مسقط أوج مجدها واتسـاعها في عهد سعـيد بن سلطان(١٨٠٤-١٨٥٦م)، إذ كانت المراكب العمانية الـكبيرة، تقوم برحلات منتظمة بين السلطنة وممتلكاتها الإفريقيـة، وبدا أن الصداقة البريطانية مثمرة، وبدت معالم السرور على وجوه التجار بسبب ازدهار أعمالهم.

وفي عام ١٨٣٢م، خـبا نجم مسقـط فترة من الزمن، عندمـا قرر السلطان نقل عاصمتـه إلى إفريقيا، إلى زنجبـار، واستقر، يحكم من هناك إمبراطوريتـه كلها حتى مات. وبعد موت سعيد بن سلطان في عـام ١٨٥٦م، اقتسم ولداه مملكته، إذ احتفظ أحـدهما بالممـتلكات الإفريـقيـة، والأخر سـيطر على الممـتلكات العربيـة. تطورت الأحوال، ولم يبق ثابتاً، طوعاً أو كرهاً، سوى الحماية البريطانية. وكانت زنجبار أكثر تبعية للبريطانيين من مسقط.

إن الموقع الاستراتيجي الـهام للسلطنة العربية جذب إلى بلاطها مـبعوثي القوى المختلفـة، وكانت علاقاتها الخـارجية مزدهرة منذ عـهد سعيـد بن سلطان، وكان من الطبـيعي أن تشـهـد تطوراً، ويتسع نـطاقهـا. ففي عـام ١٨٣٣م، وُقـعت معـاهدة صداقة-ما تزال سـارية المفعول- مع الولايات المتحدة الأمريكيـة. وكانت بريطانيا من جهتها، قـد عقدت مع السلطان معاهدة جـديدة، سميت مـعاهدة تجارة وصداقة في عام ١٨٣٩م. وأرست فرنسـا بدورها علاقة تحالف مع مـسقط في عام ١٨٤١م، ثم وقعت معهـا معاهدة صداقة جديدة في عام ١٨٤٤م. ووقـعت هولندا معاهدة تجارية مع مسقط في عام ١٨٧٧م. وكـانت القوتان الكبيرتان المتنافستـان في المنطقة؛ فرنسا وبريطانيا، مـتعارضتـان إبان فترة طويلة من القـرن التاسع عشـر، واستطاع السلطان

(١) انظر السير ريدر بولارد: بريطانيا والشرق الأوسط.

بسبب تنازع القوتين أن يحافظ على «استقلاله». إذْ رضيت فرنسا في عام ١٨٦٢م، بالاتفاق مع بريطانيا على ضمان استقلال سلطان مسقط، ووحدة أراضيه[١٨٤]. ولكي تزعج بريطانيا، التي أعلنت حرباً شعواء على القراصنة والمهربين، ساعدت السلطات القنصلية الفرنسية بعض المراكب، المشكوك فيها، على النجاة من ملاحقة البحرية الملكية البريطانية، بأن سمحت لها أن ترفع العلم الفرنسي ذي الألوان الثلاثة. ثم أقلعت عن ذلك أمام الاحتجاجات البريطانية المستمرة، وبعد توقيع الاتفاق الودي Entente Cordiale بين الدولتين.

التفوق البريطاني

بعد الحرب العالمية الأولى، وعلى الرغم من أن معاهدة الصداقة الفرنسية مع سلطنة مسقط، ما تزال سارية المفعول، أُغلقت القنصلية الفرنسية في مسقط، وكان ذلك دلالة على أن التفوق البريطاني أصبح حقيقة مطلقة، ولكن بريطانيا كانت حريصة على المحافظة على المظهر الخارجي لاستقلال السلطنة. وهكذا، اعترفت بريطانيا باستقلال السلطنة، عندما نوقشت عام ١٩٠٥م في محكمة العدل الدولية في لاهاي مشكلة مراكب مسقط. وتطلق لندن على ممثلها في مسقط لقب قنصل، مع أن له الصفة نفسها التي يمتلكها بقية المقيمين السياسيين البريطانيين في إمارات الخليج الأخرى، وخصوصاً خضوعه لسلطة المقيم السياسي البريطاني في الخليج المقيم في البحرين. لقد وضعت بريطانيا علاقاتها مع السلطنة في إطار قانوني يحافظ على المظاهر. وفي الخامس من فبراير«شباط» ١٩٣٩م، جددت بريطانيا مع السلطنة اتفاقية الصداقة والتجارة والملاحة، التي كانت قد وقعت في ١٩مارس«آذار» ١٨٩١م، والتي تضمن حقوق الحصانة السياسية للرعايا البريطانيين في السلطنة، وقد حدت الاتفاقية الجديدة من تلك الحقوق قليلا. وكان السلطان قد أصدر في ٢٠يناير«كانون الثاني» ١٩٢٣م مذكرة، تعهد فيها بعدم إعطاء أي امتياز لاستثمار الثروات الطبيعية دون استشارة الممثل البريطاني في مسقط.

وفي ٢٠ ديسمبر«كانون الأول» ١٩٥١م، وقع السلطان السيد سعيد بن تيمور، والمقيم السياسي البريطاني في الخليج باسم جلالة ملكة بريطانيا، اتفاقية صداقة وتجارة وملاحة جديدة، احتفظت بموجبها بريطانيا بحقوقها في تشريع الحصانة السياسية لغير المسلمين[١٨٥]من رعايا المملكة المتحدة، ومستعمراتها، وقد وردت ترتيبات ذلك هذه المرة في الرسائل المتبادلة الملحقة بالمعاهدة.

وإذا كان الوضع القانوني لسلطنة مسقط، يجعل منها دولة مستقلة في نظر القانون الدولي، فإن الواقع العملي يجعل منها محمية بريطانية حسب القانون الدولي نفسه، الذي يستخدم عادة لتعريف هذا النوع من الكيانات السياسية؛ إذ إن الشؤون الخارجية، والدفاع، والمالية-عبر لعبة المساعدات-في السلطنة تحت إشراف البريطانيين. وبريطانيا هي التي تمثل السلطان في النزاع حول واحة البريمي، كما أن جنودها وطائرات سلاح الجوي الملكي، وليس فقط القوات المحلية التي يقودها ضباط بريطانيين، اضطرت إلى التدخل في يوليو-أغسطس«تموز-آب» ١٩٥٧م لتدعيم سلطة مسقط المهددة في عمان الثائرة ضدها.

القوى الخفية في عُمان الثائرة

لقد كشفت ثورة عُمان في صيف عام ١٩٥٧م، مدى تعقيد الوضع السياسي الداخلي في السلطنة. إن السلطة الفعلية لسلطان مسقط، لم تكن في واقع الأمر، حتى عام ١٩٥٥م، تتخطى المنطقة الساحلية من عُمان. أما الداخل الجبلي، الذي تسكنه قبائل صعبة المراس، ومتخلفة، فكان خاضعاً لإمام إباضي، يقيم في نزوى، ولا يعترف إلا بتبعية اسمية لسلطان مسقط، الذي يستطيع أن يقطع عليه اتصالاته الحيوية مع الخارج.

وفي عام ١٩١٥م، لـم يستطع سلطان مـسقط إخـماد ثورة قبـائل الداخل إلا بمساعدة القوات البريطانية-الهندية. واستمـرت الثورة مشتعلة حتى عام ١٩٢٠ عندما وقِّعت معـاهدة «السيب» المشهورة، بين إمـام عمان، وسلطان مسقط، وقـد اعترفت هذه المعاهدة لقبـائل الداخل بحقهم في شكل من الاستقلال الذاتي. ولم يُـعْثر لهذا النص العجيب على أثر، في أعقاب الخلاف القانوني الذي نتج عن التدخل البريطاني المسلح إلى جانب سلطان مسقط عـام ١٩٥٧م؛ ولكن حكومة الهند، التي كانت تمثل بريطانيا في منطقة الخليج حينئذٍ، اعترفت في عـام ١٩٢٨م بإمام عُمان، سيداً لإمامة عُمان المستقلة.

لم يحاول السيـد سعيد بن تيمـور، الذي خلف والده في عام ١٩٣٢م، مطلقاً أن يؤكد نفوذه في [١٨٦]عُمان حتى حل ذلك اليوم، الذي وجدت فيه المملكة العربية السعودية ومصر، محاوراً لين العريكة في شخص الإمام غالب، ومحاوراً أكثر ليناً في أخيـه طالب. إن السعوديين، الـذين لم يتخلوا أبداً عن حلمهـم المتمثل في توحـيد الجزيرة العربيـة كلها، والناصريين الذين أقسمـوا على التخلص نهائياً من الاستـعمار البريطاني، اقـترحـوا على إمام نزوى إعلان اسـتقلاله عن إمـام مسـقط، الذي يتبع الحكومة البريطانية تبعية تامة، ولا يولي اهتمـاماً كبيراً لفكرة الوحدة العربية. وليست عمليـات التنقيب عن البـترول التي كـانت تنشط في الجنوب بغريبـة عن ذلك. وفي صباح ١٥ ديسمبر«كانون الأول» ١٩٥٥م و-بمساعدة شركة البترول-وبقيادة الكولونيل واترفيلد Waterfield، أُعدت عمليـة سرية، حملت قوات سلطان مـسقط إلى أسوار نزوى. وأُزيح الإمـام الذي أدهشه الأمـر، وتمكن أخـوه طالب من الفرار. وحـدث بعض إطلاق النار، ولم تسقط أي ضحية، ولم يعد للسيد سعيد أي منافس.

ولما علم السلطان بالنبـأ السعيد، غـادر ظفار، حيث كـان ينتظر على أحر من الجمر نتائج الحملة، بموكب النصر عبـر البلاد التابعة له، والتي كان يراها لأول مرة. ولكنه تجنب التـوغل في المناطق الجبليـة، وباستـثناء زيارته نزوى، التف حـول الجبل

الأخضر، الذي ليس هناك طريق تؤدي إليه، ذاهباً إلى الشمال، لينزل بعد ذلك على طول الساحل نحو عاصمته المخلصة له.

واستطاع مراسل صحيفة التايمز جيمس موريس، أن يواكب هذه الجولة البطولية، ويصف لنا مشاهداته. لقد كان السلطان في كل مراحل جولته يتلقى عهود الولاء من مختلف شيوخ القرى والقبائل. وتوقف السيد سعيد، قبل أن يعود إلى مسقط، في واحة البريمي، وقابل هناك الشيخ شخبوط بن سلطان، حاكم أبو ظبي، الذي يقتسم معه السيادة على الواحة الكبيرة في جنوب شرقي الجزيرة العربية. وكان قد زار في طريقه المنقبين عن البترول، التابعين لشركة سيتيز سيرفيس في ظفار، والتابعين لشركة بتروليوم ديفلوبمنت عُمان Petroleum Development-Oman في فهود. وكان في كل مكان يسجل ملاحظات على مذكرته التي لا تفارقه.

ولكنه عندما عاد إلى قصره المتواضع، لم يكن أحد يعلم ماذا يخفي من أفكار وراء قسماته المتعبة.

وإذا كان السلطان يفكر أن كل شيء قد بدأ الآن، فقد كان مصيباً في ذلك. فقبل عدة أسابيع كانت قوات[١٨٧]ساحل عُمان المتصالح (Turucial Oman) Scouts، بقيادة الضباط البريطانيين، قد أخرجت القوات السعودية من واحة البريمي، وشهد الخلاف حولها نهاية عنيفة، غير متوقعة، ولكنها مؤكدة. ولم يكن حاكم الرياض ليرضى أن تتم ببساطة إزاحة الإمام غالب، وهو شيخ ديني، اختير اختياراً قانونياً، وحليف له. والحقيقة التي ازدادت مع الأيام رسوخاً، هي أن هذا الخلافات في هذه المنطقة النائية ليس لها سبب أخر إلا البترول. وقد تلقى مراسل التايمز توبيخاً عنيفاً من السلطات البريطانية لأنه أشار إلى ذلك، ولكننا علمنا أكثر مما أشار إليه حول هذا الموضوع. على أية حال، إن رغبة سعود وأرامكو تتعارض مع رغبة السلطان وشركة العراق بتروليوم.

أما طالب ، الذي استقبله ابن سعود، وحماه، وأكرمه، وسلحه، ومونه، بعد سقوط نزوى، فإنه قد عاد في يوليو«تموز» ١٩٥٧م، على رأس بضع مئات من أنصاره ليثير عُمان على سلطان مسقط. ولكن مطاردات القوات الجوية الملكية، المنطلقة من قواعد عدن والشارقة والبحرين، ومشاة الجبال الاسكتلنديين، وقوات مسقط وساحل القراصنة، استطاعت في نهاية الأمر إخماد الثورة. وقد استنفرت كل القوات البريطانية في الشرق الأوسط لعدة أسابيع. واستطاعت الدعاية الموجهة بحنكة من القاهرة أن تعطي القضية بُعْداً عالمياً. لقد فقد البريطانيون رباطة جأشهم، التي اشتهروا بها، وأسهمت أخطاؤهم في توفير دعاية كبيرة للثائرين. أخفق غالب وطالب، ولكنهما أفلتا من قبضة البريطانيين. ودعمت بريطانيا قواعدها وقواتها العسكرية في الشرق الأوسط، في حين أن إمام مسقط مازال يتساءل عما يخبئ له خصومه في المرة القادمة. إنه الآن يسيطر على نزوى، وعمان، والبريمي. وهو في موقعه الاستراتيجي، يشرف على مدخل الخليج العربي، ويمكنه أن يعدَّ بلهفة وشوق ناقلات البترول التي تمخر عباب الماء أمام ساحله. ومع قليل من الحظ، يأمل السيد سعيد أن يرى هذه الناقلات تحمل بترول مسقط، إن شاء الله.

[١٨٨] الفصل الثالث عشر
البتـــــرول بـلا حـــــدود

إذا وصلنا إلى مـسـقـط وعُـمـان نكون بذلك قـد دخلنا في الـعـالم المغلق، والغامض، للخليـج العربي، عالم المؤامـرات البترولية الدنيئة، والمناورات العنيـفة، والخلافات على الحدود بين المشايخ، والمصالح المتعـارضة للقوى العظمى المتحالفة في الظاهر، عبـر شركاتهـا البترولية الوطنية. وإذا غادرنا عُـمان صعـوداً على سواحل الخليج، نحو الشمال، فإننا لا نصادف إلا إمارات صـغيرة، مشرفة على البحر، تحت الحمـاية البريطانية، تحـرص بريطانيا كل الحرص على المحـافظة عليها، وعلى إبقـائها بعيدة عن رغبـة السعوديين في ضمها إلى مملكتهم الكبـيرة المجاورة، التي بدأت تظهر فيـها مـلامح النفوذ الأمـريكي. يستطيع في هذه الإمـارات رعاة قطعـان الماعز، أن يصبحوا خـلال بضع سنوات من كبار الأثرياء بفضل العائدات الضخـمة التي حملها لهم الذهب الأسـود. ومثال الجـيران الشمـاليين علمهم أنه يمكن جـمعُ ثروات طائلة بفضل مساحات صـغيرة من الرمال، دون أن يكون المستفيدون منهـا يستحقون ذلك. وكل هذه الثروات التي تتـنقل في سيارات الكاديلاك المكيـفة تشعل نار الحـسد الذي ينعكس موتاً. إن الروائح الكريهـة المنبعثة من البـترول، ينتشي بها بكل تأكـيد عرب الخليج، أكثر مما ينتشون بالأريج المغري، المنبعث من «حـديقة غناء». وإن نفحة خبيثة من جنون البترول، نوع جـديد من شيطان الرهان، تستثير بلا انقطـاع الخيال الخصب للقاطنين على أطراف«خليج الأمل السحري».

في هذا العالم الصغـير، الذي اعتاد على الصراعات الأسـرية والقبلية، وعلى الغزوات العابرة، وعلى تنوع السلطة الفعلية التي تحكمه، لم تُرسَّم في يوم من الأيام الحدود بـدقة. ليس لأن[١٨٩] القـبائل البـدوية، والزعمـاء الذين ينحدرون منـها، يجهـلون معنى الحدود الأرضـية؛ بل لأن كلمـة «حدود» بالعـربية، ليس لهـا المعنى الجامع المانع، الذي تحمله الكلمة الأوروبية المعادلة لها.

إن مفهـومنا القانوني الصارم للحدود، التي تُرْسَم بدقـة على الخريطة، المرتبط بحقوق سيادة معينة يدل عليهـا، لم يصبح له هنا قيمة ولا أهمية، إلا عندما ثبت أن السائل العجيب الثمين ينساب في باطن الأرض دون أن يعبأ برغبات البشر. إن كسب عدة كيلومـترات في منطقة الحدود، قد يعـني بالنسبة إلى الزعماء العـرب، الحصول على الثروة أو فقدانها، وإلى المستثمرين الأجانب بترو- دولار، أو بترو- إسترليني.

إن الامتياز الذي منحته المملكة العربيـة السعودية لشركة أرابيان أميريكان أويل، يشمل بالطبع حـدود المملكة المسلم بها. . .التي لم تُرَسَّم من جهـة الرُّبع الخالي[1]، هذا «الفضاء» الهائل في الجزيرة العربية.

فـفي الجنوب والجنوب الشرقي، حـصلت شـركة بتـروليوم كـونسيـسيـونس Petroleum Concessions على امـتيـازات مـحمـية عـدن، وحـصلت شركـة سيتـيزسرفيس على امـتياز التنقيب في ظفـار، وشركة بتروليوم ديفلـوبمنت في عمان وساحل القـراصنة، كل هذه الشركات تتمـتع بامتيازات تنتـهي نظرياً عند حدود هذه الكيانات مع المملكة العربية السعودية؛ ولكن هذه الحدود كلها لا وجود لها!

إن اكتشاف البترول في شبوة، وفي بئر ثمود، وفي ظفار، وفي أبوظبي، حرك أطماع السعـودية وأصدقائها الأمريكيين. لـقد حصلت شركة العـراق بتروليوم على امتيـاز للتنقيب في مساحة ٦٠٠ ألف كم مـربع من مساحة الجزيرة العربيـة، ما عدا ظفار، وهي شركة ذات ترجح فيها كفة المصالح البريطانية[2].

---

(١) بل تم ترسيـمها ولم تعد غـير مرسـمه سواء منها المـتصل علي الإمارات العربيـة المتحدة أو سلطنة عـمـان أو الجمهورية اليمنية (المنيف).

(٢) أذكر أن شـركة الـعراق بتـروليوم كـومبـاني، لها إدارة بريطانيـة، وتملك فـيهـا شركـتا B. P.، وشل Shell البريطانيتين نسبة ٢٣,٧٥٪ لكل واحدة، ومن شركة فرنسيـة اسمها كومباني فرانسيز دي بترول Compagnie Française des Pétroles، وشـركـة أمـــريكيـة نيـــرإيست ديفلوبمنت كـــوربوريشين، Le Near East Development Corporation التي تمتلكهـا مناصـفة شـركـتا جـيـرسي ستـاندرد Jersey Standard، وسوكوني موبيل Socony Mobil، ويمتلك ورثة كالوست غولبينكيان Calouste Gulbenkian نسبة ٥٪.

إن التنقيب الذي تقوم به الشركات البريطانية، والمستقلة، في المنطقة الجنوبية من صحراء الربع الخالي، تطلب شق طرقات عبْر الصحراء، في مناطق ملتبسة، يمكن أن[١٩٠] تكون الحدود السعودية فيها على بعد مئة كم إلى الشمال، أو خمسين كيلومتراً نحو الجنوب، حسب الصورة المرتسمة لها في أذهان خلفاء ابن سعود. في حين أننا إذا أتينا من جهة الشمال، من الجانب الأخر لمحيط الرمال الراكد، فإن منقبي أرامكو يتقدمون تقدماً ملموساً نحو الجنوب، نحو منافسيهم. وإن الوسائل الحديثة من طائرات، وهيلوكبتر، وجرارات ضخمة، وبيوت متحركة مكيفة، ساعدت الجانبين على ولوج مناطق كانت منذ الأزل غير مأهولة.

وكلما تضاءلت المسافة الفاصلة بين المتنافسين، أصبح خطر نشوب الأزمة أكبر. ولعل هذا هو السبب الرئيسي، الذي بقي من أجله البترول المكتشف في مناطق متنازع عليها دون استثمار حتى اليوم.

إن أحد هذه النزاعات، الذي كان من المتوقع انفجاره، انفجر علناً منذ زمن، وبالتحديد بعد أن اقترب فريقا تنقيب، تابعين لشركتين متنافستين. لقد أظهر النزاع حول واحة البريمي مدى حدة التعارض البريطاني-الأمريكي في المنطقة. وتكمن أهمية الواحة، ناهيك عن البترول، في أن مَنْ يسيطر عليها، يسيطر على آلاف الكيلومترات المربعة المحيطة بها.

أرامكو ضد شركة العراق بتروليوم: النزاع على البريمي[١]

إن كنز واحة البريمي، ليس البترول، وإنما الماء. فعلى طرف الربع الخالي، في

(١) خصص الدباغ فصلاً في كتابه المذكور سابقاً، ج١، ص ٢٣٦-٢٣٩ للحديث عن البريمي، وقال إنها من صميم المملكة العربية السعودية. وإن تسميتها الأصلية هي تَوَام، وكان فيها تاجر يسمى البريمي يقصده رجال القوافل فيقايضون ما عندهم بما عنده، فغلب اسمه على اسمها. ويقول بعضهم إن اسمها مشتق من اسم نوع من النخيل يزرع في البصرة، ونقلت فسائل منه قديما إلى هذه المنطقة التي عرفت باسمه، ومع الأيام حرف الاسم حتى أصبح البريمي(المترجم).

منطقة تمكّن فيها القحط، تمنح عيونها الحياة لعدد من القرى، تلتقي عندها طرق القسم الجنوبي الشرقي من الجزيرة العربية. وتبعد القرى الساحلية عنها أكثر من ١٠٠ كم، وأقرب قرية سعودية تبعد بضع مئات من الكيلومترات. إن الواحة نقطة التقاء، تلتقي عندها طرق الداخل الصحراوي كلها، سواء من عمان، أو من ساحل القراصنة. وإن ملكيتها وحدها تمكن من تحديد الحدود التقريبية لسلطنة مسقط وعمان، ولمشيخة أبو ظبي، وللمملكة العربية السعودية. ولذلك كان من يسيطر عليها يحدد عملياً حدود الامتيازات البترولية لكل من الشركات الأمريكية والبريطانية المختلفة.

والواحة، في واقع الأمر، مجموعة من تسع قرى ، بيوتها من اللبن،[١٩١] تفصل بينها مساحات صحراوية متفاوتة الاتساع: بريمي، وحماسة، وصعرا، يطالب بها سلطان مسقط وعمان، في حين أن شيخ أبوظبي يطالب بالقيمي، وهيلي، والقطارة، والمويجعي(المويقعي)، والمعترض، والعين. أما ملك المملكة العربية السعودية فهو يطالب بالمنطقة كلها التي سميت باسم قرية البريمي. إن بريطانيا، حسب معاهدتها مع شيخ أبوظبي، وبناء على طلب مسقط، تدافع عن مصالح الشيخ والسلطان، التي تلتقي مع مصالح شركة العراق بتروليوم.

إن وضع الواحة، المتميز نسبياً، في واحدة من أكثر مناطق الجزيرة العربية جفافاً، يجعل منها، باستثناء الساحل، ومنطقة عمان الشمالية، وساحل القراصنة، القسم الأكثر سكاناً.

إنها مركز طبيعي للزراعة والمبادلات التجارية، يغشاها بدو هذه المنطقة من الجزيرة كلهم، مهما كان الكيان السياسي الذي ينضوون تحت لوائه. إن الفواكه، والخضار، والعلف، والتمور، التي تنتجها قرى الواحة تجري هنا مبادلتها بالأرز، والقهوة، والسكر، والمنسوجات، القادمة من الساحل. ويأتي إليها الرعاة البدو ليبادلوا بعض منتجات مواشيهم بالأغذية المستوردة أو المنتجات الزراعية الحضرية. إن لهذه المراكز التجارية، أهمية فائقة في البلاد الصحراوية، وهي تتخذ شكل حاضرة

دائرية تشمل مئات الكيلومترات. وتشكل القرية الرئيسية في هذه الواحة، بريمي، مع قرية حمـاسة، مكاناً لتجـمع البدو، وتبادل السلع بينهم. إن وجود الـبترول، الذي أصبح بحكم المؤكد، لن يكون من شأنه إلا مضاعفة الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية للواحة.

وتستند المطالبة السـعودية بهذه المنطقة إلى أن أسلاف الأسرة السعـودية الحاكمة اليوم قد بسطوا سيادتهم على الواحة بين عامي ١٨١٣م و ١٨٦٩م، وخصوصاً خلال فتـرة ازدهار الدولة السـعودية الأولى. وبعـد أن زالت السيطرة السـعودية عـن واحة البريمي، ظلـت فترة من الزمن دون سلطة تـسيطر عليهـا، شأنهـا في ذلك، حسب القانون البحري، شأن [١٩٢]قطعة صـغيرة من الأرض في عرض بحر مغلق من كل الجهات. ثم قام سلطان مـسقط بصورة عفوية بضم القرى التابـعة للقبائل التي ترتحل إلى عمـان الشماليـة إلى أرضه. أما شيـخ أبوظبي، فيعدُّ الـقرى الست، التي ترتحل قبائلها إلى أراضيـه جزءاً من مشيخته. وليس من المستـبعد أن يكون بعض البدو ممن تجذبهم واحـة البريمي، يترحلون إلى مناطق، يقع قـسم منها على الأقل في الأراضي السعودية؛ غير أن معرفة ذلك متعـذرة أيضاً لصعوبة تعيين النقطة التي تبدأ فيها تلك الحدود. وأمام هذه المسألة المعقدة، يلجأ البريطانيون إلى الاتفاقات البريطانية-التركية، التي تعـود إلـى سنتي ١٩١٣م و ١٩١٤م، والتي تحـدد حـدود سـنجق نجـد، وهي اتفاقات لا تعـترف بها الحكومة السعـودية. ونستطيع في هذا السياق أن نجـد نصوصاً أخرى، تسـاوي في صلاحيتـها الاتفاقـات البريطانية التركـية، وتسمح لبـريطانيا في المطالبة بقسم كبير من الأراضي السعودية.

إن ما يؤجج النزاع، أكثر من النصوص، هو مواقف الجهات المختلفة، الموجودة في تلك المناطق. ونلاحظ فيما يلي التطور في المطالب السعودية.

برز النزاع أول مـرة عـام ١٩٣٥م، وأدى في عـام ١٩٣٧م، إلى أول تعـديل للحدود، دون أن تشـمل المطالب السعودية المنـطقة المتنازع عليهـا اليوم. وفي الوقت

نفسه تقـــريباً، ولكن، في الطرف الأخر، الشمـالي الغربي من المملكة، أعلن الملك عبد العزيز، أنه لن يتخلى عن منطقة معان والعقبة، التي ألحقتها بريطانيا بإمارة شرقي الأردن. وبعد الحرب، بدأ عصر البترول في الجـزيرة العربية، وعزفت المملكة العربية السعودية عن المطالبة بمعان والعقبة، وأخذت تطالب بأراضٍ أخرى في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية. وفي عـام ١٩٤٩م أطلقت المملكة مطلباً جديداً، شمل هذه المرة الأراضي المحيطة بقرية البريمي. وتدعي الحكومة السعودية أن موظفيها لم يتوقفوا أبداً عن جمع الزكاة من قبائل الواحة. أما بريطانيا فترى أن علاقات البريمي، تجارية كانت أو غيرها، تمر عـبر[١٩٣]ساحل القراصنة أو ساحل عُمـان،وليس مع المملكة العربية السعودية، واسـتنكرت، بشيء من نفاد الصبر، هذا المظهـر الجديد من مظاهر التوسع السعودي.

احتـــراب وتسويـــات

في أواسط عام ١٩٥٢م، تمكنت قـوات سعودية بـقيادة تركي بن عطيـشان من السيطرة على قرية حماسة. فأصدرت بريطانيا احتجاجاً شديد اللهجة، تلاه بعد وقت قصير هجوم مضاد أجبر ابن عطيشان على الانسحاب في عام ١٩٥٣م.

وقد خففت الهدنة، التي توصل إليها الفريقان في أثناء ذلك، من حدة النزاع. وطالبت المملكة العربية السعودية بأن يجري في الواحة استفتاء شعبي، يقرر مصيرها، بينما اقترحـت بريطانيا من جانبها التحكيم الدولي. ولم يتـوقف خلال ذلك التنقيب عن البترول في المنطقة. وفي يناير«كانون الثـاني» ١٩٥٤م، جاء الإعلان عن اكتشاف البترول في أبوظبي، ليـؤكد الطبيعة البـترولية للنزاع. ولكن أهمية هذه الاكتـشافات ظلت حتى اليوم مجهولة.

واستقر الرأي على اللجوء للتحكيم، بعد المفاوضات، التي جرت في جدة بين

وزارة الخارجية البريطانية وحكومة الرياض، بين يناير ويوليو«كانون الثاني وتموز» ١٩٥٤م. وشُكِّلت لجنة مؤلفة من ممثل سعودي، وآخر بريطاني، ومن ثلاثة أعضاء محايدين، مهمتها: تعيين موقع الحدود المشتركة بين العربية السعودية، وأبوظبي، في المنطقة التي طالبت بها المملكة العربية السعودية عام ١٩٤٩م، وأبوظبي في عام ١٩٥٢م؛ وتقرير لمن تكون السيطرة على المنطقة الواقعة في دائرة مركزها يقع في قرية البريمي، ويمر محيطها في نقطة التقاء خط العرض ٢٤,٢٥دْ شمالاً، بخط الطول ٣٦,٥٥دْ شرقاً. في شمال المنطقة المتنازع عليها وجنوبها، وتحتفظ شركات البترول بحقها في متابعة التنقيب.

واجتمعت لجنة التحكيم الدولية لأول مرة في مدينة نيس الفرنسية في ٢٢ يناير«كانون الثاني» ١٩٥٥م، وقد رئس الجلسة رجل القانون البلجيكي المشهور شارل دو فيسشر Charles de Visscher، وهو قاضٍ سابق في محكمة العدل الدولية، في لاهاي، وكانت تضم حكماً كوبياً هو: السيد دو دييغو de Dihaigo، وآخر باكستانياً هو: السيد محمود حسن، والشيخ يوسف ياسين ممثلاً عن المملكة العربية السعودية[١٩٤]، والسير ريدر بولارد Sir Reader Bullard عن بريطانيا، بوصفها تمثل سلطنة مسقط ومشيخة أبوظبي. وبعد أن طلبت اللجنة من الفريقين المتنازعين الامتناع عن القيام بأي عمل في المنطقة المتنازع عليها، انفضت، بعد أن اتخذت قراراً بعقد مؤتمر التحكيم في جنيف في موعد لاحق.

وعلى الرغم من ذلك، دارت بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا معركة بيانات، فاتهمت بريطانيا المملكة العربية السعودية، بتهريب السلاح، واستمالة بعض الأطراف في الأراضي المتنازع عليها عن طريق الرشوة. وردت المملكة قائلة: إن بريطانيا تُجوِّع سكان الواحة بالحصار الذي تفرضه عليهم؛ وردت الحكومة البريطانية بالقول: إن القوات المحلية، التي يقودها بريطانيون، تبذل جهدها لمنع تهريب السلاح، والذهب المخصص للرشوة؛ ثم تؤكد المملكة العربية السعودية، أن تلك

المبالغ مخصصة للهبات التقليدية، ودعت منظمة الصليب الأحمر الدولية، ومنظمة الصحة العالمية لمساعدة حماسة التي يحاصرها البريطانيون.

التحكيم المستحيل

في هذه الأجواء المتوترة، اجتمعت اللجنة الدولية للتحكيم، في جنيف، يوم ٨ سبتمبر«أيلول» ١٩٥٥م. وسرعان ما اتضح أن الأجواء ليست مناسبة لفض الخلاف. فمنذ ١١ سبتمبر صرح السير هارتلي شوكروس Sir Hartley Shawcross، المستشار القانوني الأول للوفد البريطاني أمام اللجنة، أن المملكة العربية السعودية لا تنفك تخرق اتفاق التحكيم، والمقررات التي اتخذت في اجتماع نيس؛ ومازالت ترسل المبعوثين المحملين بالذهب إلى البريمي لاستمالة زعماء القبائل، وتدخل الأسلحة، ورجال الشرطة إلى الواحة؛ وطلب من اللجنة أن تعد مثل هذه الأعمال«مخالفة صريحة لمقرارات اللجنة وأوامرها»، اللجنة التي ينبغي أن تضمن احترام مقرراتها. ناهيك عن أن المستشار البريطاني، شكك في نزاهة الحكم الباكستاني الذي طالت إقامته في مكة المكرمة حتى تأخر موعد بدء المناقشات.[١٩٥]وشكك أيضاً في سلامة طوية الحكم السعودي، الذي وجه له رئيس الجلسة تنبيهاً، لأن الدهشة اعترته عندما رآه ينقل لأحد الشهود تعليماته مكتوبة، في أثناء جلسة الاستماع لهذا الشاهد.

وبعد عدة أيام فاجأ الحكم البريطاني، السير ريدر بولارد، الجميع بالاستقالة، بعد أن اتهم الحكومة السعودية بأنها «في سعيها للسيطرة على الأراضي المتنازع عليها، تستمر علناً في استمالة الناس». وبعد وقت قليل، استقال رئيس اللجنة، والحكم الكوبي بدورهما. حينئذٍ، أصدرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً طويلاً ، كشفت فيه تفاصيل ما دار في الجلسات. وعلمنا من هذا البيان، أن السعودية قدمت لبعض زعماء القبائل مبالغ طائلة، لتكسبهم إلى جانبها. وأن الشيخ زيداً، شقيق حاكم

أبوظبي، الذي أقر بذلك أمام اللجنة، حصل على مبلغ ضخم، قدره ٣٠ مليون جنيه إسترليني(أكثر من ثلاثين مليار فرنك فرنسي!). وأجابت المملكة العربية السعودية في بيان نشرته سفارتها في لندن، في ١٩ أكتوبر«تشرين الأول»، مكذبة الاتهامات البريطانية جملة وتفصيلاً. وأعلنت الحكومة السعودية أن جلسات لجنة التحكيم كانت مغلقة، وكان ينبغي أن تظل النقاشات سرية، وإنها لا تستطيع بسبب ذلك، تفنيد المزاعم البريطانية بنداً بنداً؛ ولكنها تكتفي بالقول: إن بريطانيا انسحبت من اللجنة عندما اتضح لها أن قرارها لن يكون لصالحها.

ويبدو الاتهام الأخير، مجرد اتهام ساذج، لمن يعرف الشخصية التي يتمتع بها السير ريدر بولارد. إن وزير بريطانيا السابق في جدة، ثم سفيرها في طهران، مستشرق متميز، قضى فترة طويلة من مشواره الدبلوماسي في الشرق الأوسط. لقد كان أسفاً كل الأسف للتطورات العنيفة، التي شهدتها قضية البريمي، وما كان لها من نتائج سيئة على العلاقات الطيبة بين السعودية وبريطانيا، تلك العلاقات التي كان يفتخر بأنه أحد مهندسيها. ويبدو لي أن مفهوم التحكيم كان خاطئاً منذ البداية، عندما سُمح للممثل السعودي، نائب وزير خارجية المملكة، بأن يكون الخصم والحكم. إن فشل[١٩٦] التحكيم في قضية البريمي يوضح جلياً مدى الصعوبة التي نواجهها، عندما نحاول فرض مفاهيم غربية، هي نتيجة تطور طويل الأمد، على شعوب شرقية، عرفت تطوراً مختلفاً. وسنرى كيف سيكون لهذا نتائج أخرى.

القـــوة، حـــلٌّ مؤقـــت

في ٢٦ أكتوبر«تشرين الأول» ١٩٥٥م، أعلن السير أنطوني إيدن Anthony Eden، رئيس مجلس الوزراء البريطاني، أمام مجلس العموم، أن ميليشيات ساحل القراصنة، (ساحل عُمان المتصالح Trucial Oman Scouts)، احتلت واحة البريمي، وطردت القوات السعودية منها. وأضاف قائلاً: «لم يكن أمامنا، بعد أن أخفقت

مفاوضات التحكيم، إلا اللجوء للقوة للإيفاء بتعهداتنا، ودعم أصدقائنا». وفي اليوم التالي، أعلنت وزارة الخارجية البريطانية عن أسر ٢٥ جندياً سعودياً في أثناء احتلال الواحة؛ سُلِّموا لبلادهم في وقت لاحق. كما ذكرت أنها عثرت على عدد من الوثائق. وعلى الفور احتجت المملكة العربية السعودية بشدة« ضد العدوان البريطاني المسلح ، والاحتلال العسكري المسلح لواحة البريمي» في سلسلة من البيانات، التي نُشرت في وقت واحد في لندن، وفي الأمم المتحدة في نيويورك، وفي باريس. وأشار بيان باريس على وجه الخصوص، إلى أن العربية السعودية لا تعترف بأي من الامتيازات الممنوحة، أو التي ستمنح، لأي كان في البريمي بدون موافقتها.

أما العلاقات السعودية البريطانية، التي شهدت تراجعاً مستمراً منذ توقيع حلف بغداد، فهي اليوم متوترة توتراً شديداً. وانتظر العالم أن تقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين، ولكن ذلك لم يحدث، على الرغم من استدعاء السفير السعودي من لندن. وظلت العلاقات خلال عدة أشهر متوترة.

وفي ١٤ نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٥م، رفضت الحكومة البريطانية رفضاً قاطعاً عرضاً تقدمت به السعودية في ٩ نوفمبر«تشرين الثاني»، يقترح العودة إلى عملية التحكيم من النقطة التي توقفت عندها؛ وأكدت في جوابها أن الفساد، والتهديد، وصلا إلى حد لا يطاق منذ ثلاث سنوات. وأشار [١٩٧]البيان البريطاني إلى أن العملية، التي قامت بها في ٢٦ أكتوبر«تشرين الأول»، القوات المحلية، لم يكن لها إلا هدف واحد، وهو العودة إلى وضع سابق شرعي، اختل بسبب احتلال القوات السعودية واحة البريمي، عام ١٩٥٢م، وهو احتلال غير قانوني، يتعارض تعارضاً صريحاً مع الاتفاقات السابقة(وخصوصاً المادة ٦ من معاهدة جدة). إن التوتر المستمر، الذي يشهده الوضع العام في الشرق الأوسط، مرتبط، بلا شك، بالمواقف المتصلبة للبلدين. وقد بلغ الغضب السعودي ذروته، في ١٥ ديسمبر«كانون الأول»، عندما أجبرت القوة إمام نزوى على الهرب، وتدعمت بذلك سلطة أصدقاء بريطانيا.

وفي نهاية ديسمبر«كانون الأول» ١٩٥٥م، اجتمع السلطان سعيد بن تيمور، حاكم مسقط وعمان، في قرية البريمي بنظيره حاكم أبوظبي، الشيخ شخبوط بن سلطان، للتوقيع على اتفاق تاريخي حول اقتسام السيادة في واحة البريمي، بمباركة مريدي لورانس العرب.

على الرغم من صمت استمر عدة أشهر، أدى ضغط الولايات المتحدة الأمريكية، القلقة، والمستاءة من التطور الذي شهدته القضية، إلى استئناف الجهود الدبلوماسية.

وقد كانت قضية البريمي على رأس الموضوعات التي ناقشها السير أنطوني إيدن خلال زيارته واشنطن في فبراير«شباط» ١٩٥٦م. وقد حاولت وزارة الخارجية الأمريكية، عبثاً، إقناع البريطانيين بالعودة إلى التحكيم من جديد. أما السعوديون، الذين بدؤوا يظهرون مخاوفهم من تطور الأوضاع، فقد طلبوا تدخل الرئيس إيزنهاور، ولكن محادثات إيزنهاور-إيدين، لم تفضِ مباشرة إلى الحل المطلوب. واضطرت وزارتا الخارجية في أمريكا وبريطانيا على الاعتراف بأن هناك تبايناً في وجهات النظر بشأن قضية البريمي.

إن البريطانيين، الذين كانوا سعداء كل السعادة لأنهم وجدوا أدلة على تجارة الرقيق والسلاح، وعلى انتشار الفساد على نطاق واسع، أبدوا في المسألة تصلباً كلياً، ولكن ممثليهم الدبلوماسيين، تلقوا في الوقت نفسه تعليمات بوجوب المحافظة على شعرة معاوية مع السعوديين. وفي ٢٦ أبريل«نيسان» ١٩٥٦م، أعلنت وزارة الخارجية البريطانية ببيان مقتضب، استئناف العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا والسعودية. وفي ٢ مايو«أيار» التالي، علمنا [١٩٨] أن السفير البريطاني في جدة، بدأ محادثات، بهدف إعادة العلاقات الودية التقليدية بين البلدين. ولكن هذه المحادثات، لم تفضِ إلى أي نتيجة إيجابية، لأن الأزمة التي أحدثها جمال عبد الناصر قطعت الطريق أمام أي تفاهم سلمي بين العرب وبريطانيا.

بريطانيا تحت التجربة

ليس هناك من شك في أن الضغط الأمريكي على الجانبين، أدى دوراً فاعلاً في استئناف العلاقات بينهما. لقد كانت الولايات المتحدة تخشى كل الخشية تدويل نزاع تجد نفسها فيه مضطرة إلى دعم وجهة النظر السعودية. إن تقويم أمريكا، الكلي والموضوعي للسياسة العربية-التي رأينا نتائجها الرائعة-جعلها تُصَنَّف آلياً في الصف المعادي لبريطانيا. فقبل ثلاثة أشهر من العدوان المفاجئ على السويس، أعلنت وزارة الخارجية الأمريكية أنها مازالت تعد جمال عبد الناصر«عنصر استقرار» في الشرق الأوسط. ويبدو أن وزير الخارجية الأمريكية، السيد دالس Dulles، قد خُدع بتقارير سفير بلاده في القاهرة، السيد بايورد Byroade، وبنى استراتيجيته على أساس حسن نية الجنرال المصري، الذي ينبغي، كما يتوهمون، انتزاعه من الإغراءات السوفيتية الخادعة.

إن الولايات المتحدة الأمريكية، تحملت المناورات الناصرية طويلاً، وعندما ظنت أنها سيدة الموقف، سحبت فجأة عرضها لتمويل بناء سد أسوان. وبعد مضي أسبوع على ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية، أجاب عبد الناصر، عندما سئل عن ذلك، في ٢٦ يوليو«تموز»، وهو يضحك ملء شدقيه، بأنه سيؤمم قناة السويس. وأعلنت المملكة العربية السعودية فوراً دعمها للخطوة المصرية المباركة.

كان تأميم قناة السويس منطلقاً لسلسلة من الأحداث المؤثرة، التي حولت الأنظار لفترة طويلة عن مشكلات الشرق الأوسط كلها. وعُلقت مشكلة البريمي. ثم جاء العدوان الثلاثي على مصر، في نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٦م، ليجمدها. وكان من نتائج ذلك العدوان قطع العلاقات الدبلوماسية بين بريطانيا والسعودية، وبداية[١٩٩] عهد جديد من العلاقات العربية البريطانية.

إن التحدي الكبير، الذي أعلنه عبد الناصر في وجه القوى العظمى الغربية، وفشل محاولات فض الخلاف كلها ، وأخيراً العدوان الفاشل على بورسعيد، كل ذلك، جعل حرب السويس ثورة أحس بها العرب أكثر من الأوروبيين. ومع ذلك، فإنه يبدو لي أن العرب لم يحسنوا تقدير الإصرار البريطاني على البقاء في الخليج العربي. ففي عام ١٩٥٨م، كانت بريطانيا، كما هي الحال في بداية القرن، تعد أن أي محاولة لإخراجها من الخليج العربي يهدد أكثر مصالحها أهمية. وهي مستعدة، كي تحمي مصالحها البترولية، للمخاطرة بكل شيء، ولشن حرب مهما كانت النتائج، لأن قطع البترول يعني تهديد وجودها.

لقد كانت بريطانيا، في الوقت نفسه، في مأزق، كان يزداد خطراً يوماً بعد يوم. إنها، بسبب تعهداتها القديمة، وفي مقابل الانفراد بالعلاقات والامتيازات، مضطرة لحماية استقلال إمارات صغيرة استبدادية، تجاوزها وعي مواطنيها، الذين فتحوا عيونهم على ما حولهم. وتخشى بريطانيا أن يعجل أي تهاون في الدعم البريطاني، في أي منطقة من مناطق الخليج العربي، بانهيار نظام قائم على بعض المخلصين للصداقة البريطانية. ولكي تحفظ بسيطرتها على بترول الخليج، وعلى الأموال الطائلة التي تجنيها، تجد بريطانيا نفسها غير مرة ملزمة باستخدام السلاح للدفاع عن القضايا، العادلة أو غير العادلة، للمتهورين الذين تحميهم.

هل هي الطريقة المثلى لذلك ؟ تراودنا الشكوك في بعض الأحيان. إن وزارة الخارجية البريطانية حزمت أمرها نهائياً، وأخذت على عاتقها حماية إمارات الخليج العربية كلها، دون اعتبار لمساحتها، ولإنتاجها من البترول، ولقابليتها في الاستمرار. لم يبق للقوة، الوصية على هذه البلاد، التي لا حدود فيها، والتي أفسدها البترول، إلا أن تدافع عن المصالح المشتركة للأمراء وللشركات البترولية. ولكنها عندما تفعل ذلك، تغمض عيونها عن حقيقة أن الزمن قد تغير، حتى في الخليج العربي.

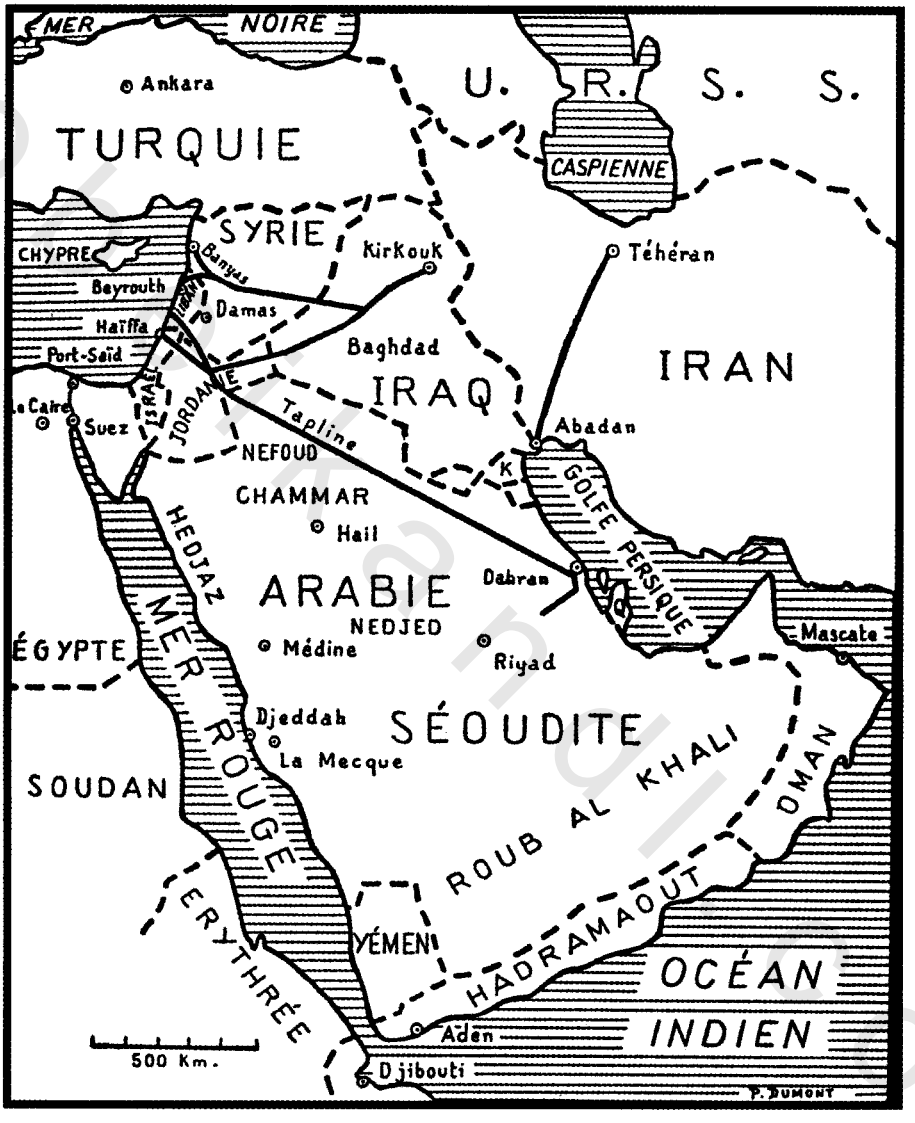

الشكل ٣. إمارات الجزيرة العربية في الجنوب ـ الشرقي
(قطر، ساحل القراصنة، عمان، مسقط)

[٢٠٠] الفصل الرابع عشر
ساحل القراصنة[١] ـ ساحل البترول

إن المنطقة الساحلية للجزيرة العربية، الممتدة من شبه جزيرة مسندم في مدخل الخليج العربي، وحتى شبه جزيرة قطر في وسطه، تسمى ساحل القراصنة. ويطلق عليه البريطانيون اسم الساحل المتصالح، أو ساحل عمان المتصالح. وفيما وراء قطر، تقع الأحساء والكويت، اللتين تضمان أضخم آبار البترول في العالم. إن الساحل العربي من الخليج، مقسوم سياسياً بين العربية السعودية في الأحساء، وحوالي عشر إمارات يحميها العرش البريطاني. وتدين هذه الإمارات، المتفاوتة في مساحتها، بالمحافظة على استقلالها للمنافسة البريطانية الأمريكية على البترول. إن «إمارات» الخليج العربي، كما تُسمى في بعض الأحيان، لا تمثل مع ذلك، لا مجتمعة، ولا منفردة، كياناً سياسياً يشبه محمية عدن، مع أن الوضع متماثل في الحالتين جميعا.

تمتلك الحكومة البريطانية في العربية الجنوبية، بموجب وثيقة الحماية، سلطة سن القوانين والإدارة. «إن سلطة التشريع»، التي تمتلكها بريطانيا تتوافق مع تعريفها للحماية. في حين أن إمارات الخليج العربي تُسمى في النصوص الرسمية «دولاً ذات سيادة، ترتبط بمعاهدات خاصة مع الحكومة البريطانية»؛ إنها «دول تحت الحماية»، وهي حالة تتفق مع التعريف التالي: «بلد خاضع لحاكم محلي، يتمتع بحماية بريطانيا، التي تشرف على سياسته الخارجية، ولا تتدخل في شؤونه[٢٠١] الداخلية»[٢]. ويتضح في التطبيق العملي للحماية الفرق بين محمية من النمط الاستعماري، مثل محمية عدن، وبين «الدول المحمية»، مثل إمارات الخليج العربي، إذ إن الأولى تابعة لوزارة المستعمرات، في حين أن الثانية مرتبطة بوزارة الخارجية.

---

(١) انظر تعليقنا في ص ٤٥ .

(٢) انظر حوليات الإمبراطورية والكومنولث، ١٩٥٣-١٩٥٤م، نيومان نايم ليتد Newman Neame Ltd، لندن-العربية الشرقية: إمارات الخليج العربي، التوثيق الفرنسي، باريس، ١٩٥٦م، رقم ٢,٢٢٩ .

وإن نظام الدول المحمية يشمل مشيخات ساحل القراصنة السبع، وقطر، وأرخبيل الجزر البحرينية، والكويت. وترتبط بريطانيا مع هذه الدول كلها بمعاهدات تخولها الإشراف التام على شؤونها الخارجية، ثم أُضيف إلى ذلك من بَعْدُ أن هذه الدول تلتزم بعدم منح أي امتياز بترولي دون موافقة بريطانيا. وقد كان ابن سعود قد اعترف لبريطانيا بهذه الوضعية المتميزة، حسب المادة السادسة من اتفاقية جدة في ٢٠ مايو«أيار» ١٩٢٧م، ولم يختل هذا الاتفاق إلا في الآونة الأخيرة. تاريخياً، كان استقرار أول مقيم بريطاني في مسقط، أحد الأسباب التي سمحت للحكومة البريطانية بالاستئثار بالنفوذ في هذه المنطقة الحساسة من العالم. إن محاربة القرصنة، والاتجار بالرقيق ، الذي حرمه القانون البريطاني منذ بداية القرن التاسع عشر، أديا في عام ١٨٢٠م إلى توقيع سلسلة أولى من اتفاقيات الهدنة بين زعماء ساحل القراصنة وشركة الهند الشرقية. ثم تبع ذلك وأكمله في عام ١٨٥٣م، التوقيع على «معاهدة السلام الدائم»، التي افتتحت عصر الهيمنة البريطانية المطلقة في الخليج العربي، التي مضى عليها قرن من الزمن. هذه المعاهدة، هي التي أعطت لساحل القراصنة، اسمه الإنجليزي الجديد؛ الساحل المتصالح(Trucial Coast).

ساحل القراصنة

لم يستطع البريطانيون بالطبع الحصول على نتائج فورية، وبلا صعوبة، في مجال القضاء على القرصنة في الخليج العربي. وإن أفضل الاتفاقيات لن يكون لها قدرة سحرية على تغيير الطبائع الأزلية للبشر فجأة. لقد كانت منطقة الخليج كلها منذ القدم ملجأ خطراً [٢٠٣] لمغامري البحر. ولكن مراكبهم الصغيرة، ذات الكواثل المرتفعة، لم تكن تستطيع أن تسبق السفن البخارية الحديثة. وشيئاً فشيئاً أدت المراقبة التي مارسها الأسطول الملكي البريطاني، وزوال السفن الشراعية، إلى اختفاء أخر القراصنة. ولم تكن أعمال التهريب، ونقل الأسلحة، والاتجار بالرقيق إلا بدائل

مخجلة، لجأ إليها لصوص البحار الحقيقيين، الذين لم يختفوا نهائياً.

إن الوثائق التي حصلت عليها القوات البريطانية عندما احتلت واحة البريمي، تتحدث عن القيام بثلاث«حملات» للاتجار بالرقيق خلال ثمانية عشر شهراً باتجاه المملكة العربية السعودية. ويمكننا أن نفترض وجود حملات أخرى. والأمر نفسه بالنسبة إلى السلاح، الذي كان أتباع الإمام غالب، وزعيم الثائرين طالب، يستخدمونه إبان الثورة الأخيرة في عمان، الذي يبدو أنه نُقل عبر ميناء دبي، أفضل ميناء على الساحل.

يبسط الشيوخ السبعة، الذين تحمل أراضيهم اسم ساحل القراصنة، سيادتهم على مساحات متفاوتة من الصحراء المقفرة، التي تنتشر فيها السباخ الملحية. ولا يمكن تقدير مساحتها العامة إلا على وجه التقريب، وهي بين ٢٠ و ٨٠ ألف كم مربع، حسب تقسيم الأراضي الرملية، والسباخ الملحية، التي يمكن ضمها للساحل المتعرج. وتكاد الحياة تتركز في القرى الساحلية وحدها، وفي واحة البريمي. ويقدر عدد السكان بـ ٨٠ ألف نسمة، ٣٠ منهم يسكنون الدولة القائمة في مدينة دبي، وهي ميناء رئيسي، ومقر المقيم البريطاني. إن فقر هذه المنطقة مقارنة مع الأراضي البترولية المجاورة، يدفع سكان ساحل القراصنة إلى مغادرة أوطانهم، ولو مؤقتاً، للعمل في البحرين، أو في قطر، أو في الكويت. ويقدر عدد بدو الداخل اليوم بما يقارب ١٢ ألفاً.

وهناك أربع إمارات ساحلية، ليست سوى قرى ساحلية: عجمان، أم القوين، ورأس الخيمة، والفجيرة؛ أما الثلاث الأخرى فهي: دبي، أكبر المدن وأهم الموانئ، والشارقة التي تتبعها كلبا، وفيها قاعدة جوية للقوات الملكية الجوية البريطانية، وأبوظبي، التي هي أكبر مساحة من الإمارات مجتمعة. وسواء كانت الإمارات المذكورة صغيرة أو كبيرة، فإنها حريصة كل الحرص على[٢٠٤] استقلالها التام. وقد تصاعدت منذ سنوات النزاعات المستمرة بينها، بسبب وسواس البترول، ويقضي الممثلون البريطانيون معظم أوقاتهم في تهدئة النزاعات التي لا طائل من ورائها. وإن

محاولات الاتحاد السرية، التي بدأت منذ عام ١٩٤٥م باجتماع الشيوخ في البريمي، أفضت إلى الاتفاق على عقد لقاءات نصف سنوية تقريباً، في نطاق ما سُمي«مجلس الأمراء»، الذي يشرف عليه المندوب البريطاني. ويقود قوات ساحل القراصنة العسكرية، المقدم إيريك ف. جونسون Eric F. Johnson، يساعده اثنان وعشرون ضابطاً أرسلتهم القوات البريطانية، وهم ينشرون السلام البريطاني، وقد رأينا الدور الذي أدوه في قضية البريمي.

الصراع من أجل الحياة والامتيازات

إن هذا الساحل المتعرج، ذا الأعماق السحيقة، الذي تملؤه الأرصفة المرجانية، والجزر الصغيرة. وذلك الداخل المسطح من الكثبان والسباخ، حزام الأرض الممتد بين خليج عُمان وقطر، هو أول ميدان لصراع عنيف بين الإنسان وعناصر الطبيعة. فبحارة كل الأزمنة، يبنون على الساحل مراكبهم التي تتراقص على صفحة الماء في موسم الصيد، صيد اللؤلؤ، أو الأسماك؛ وتقضي الزوارق الصغيرة بعض المرات الليل كله تحت جؤجؤ سفن الدوريات البحرية البريطانية، لتُفرغ بلا ضجة، في خليج صغير، حمولتها المهربة بعيداً عن أعين الرقباء. وفي الداخل، وفيما عدا بعض موارد المياه المالحة النادرة، التي تنمو فيها بعض أشجار نخيل التمر، تتركز الحياة الزراعية الحضرية في واحة البريمي. ومنذ احتلالها عام ١٩٥٥م، استفادت الواحة من المساعدات المالية البريطانية، ومن المساعدة المخصصة لتحسين الإنتاج. ويُعدُّ ترميم قنوات الري الضرورية، وتقديم مضخات المياه، وافتتاح مستوصف، من أهم منجزات الإدارة الجديدة.

إن رأس الخيمة، آخر الإمارات في أقصى الشرق، والأقل قحطاً، هي موضع اهتمام خاص لتطوير الزراعة فيها. لقد وضعت بريطانيا خطة خمسية لتطوير المنطقة، تقدر تكاليفها بـ ٥٠٠ ألف جنيه إسترليني.[٢٠٥]

وإذا كان أحفاد القراصنة القدماء قد ظلوا في الأعم الأغلب صيادين، وغطاسي لؤلؤ، فذلك لأن أرضهم القاحلة لا تصلح إلا للتنقيب عن البترول. وقد كانت نتائج التنقيب المستمر منذ بضع سنوات مخيبة للآمال: آبار جافة، زيوت ثقيلة جداً، غاز خطر. ومازال الحفر، والسبر الزلزالي والجاذبي، مستمراً في عدد من الأماكن، سواء على اليابسة أو تحت مياه الخليج. تمتلك شركة بترولیوم ديفلوبمنت(الساحل المتصالح) ليمتد Petroleum Development (Trucial Coast) Limited، وهي فرع من مجموعة شركات العراق بترولیوم، التي قامت بقسم كبير من أعمال التنقيب في أبوظبي. أما امتيازات قعر البحر، فتمتلكها شركات مختلفة. لقد طالب عدد من الدول، منذ تصريح ترومان Truman في عام ١٩٤٥م، بسيادته على «الهضبة القارية»، التي تتسم قضية وجودها بالغموض[١] . ومنذ عام ١٩٤٩م، أعلنت الإمارات المختلفة على الخليج سيادتها على قاع البحر الواقع بين سواحلها وخط وسطي وهمي يقسم الخليج. ثم فتح الأمراء باب المزاد عليها. فمُنح في بادئ الأمر امتياز قاع البحر التابع لأبوظبي-باستثناء المياه الإقليمية- لشركة سبريور أويل Superior Oil Company، بالاشتراك مع أنترناشيونال مارين أويل International Marine Oil Company. وأمام احتجاج شركة بترولیوم ديفلوبمنت، شركاء العراق بترولیوم، اجتمعت لجنة تحكيم دولية في باريس، في يوليو«تموز» ١٩٥١م لدراسة مدى صلاحية الامتياز الجديد. ومع ذلك فإن شركة أنترناشيونال مارين، التي لم تتقدم في أعمال التنقيب كثيراً، تخلت عن حقوقها في عام ١٩٥٢م. وحصلت على الامتياز منذ مارس«آذار» ١٩٥٣م شركة دارسي(B. P.)

(١) إن مفهوم الهضبة أو النجد القاري Plateau ou socle continentale، مفهوم ثوري في القانون الدولي، وقد كان منذ زمن موضوعاً لمزاعم هي في الحق متوهمة، وتهدد الحرية التقليدية في أعالي البحار. وهي في الخليج العربي موضع نزاع بين إيران والجزيرة العربية، وهي خيالية تماماً. وقد كان اللجوء إلى هذا المفهوم ضرورياً لمحاولة التحديد التقريبي لملكية الآبار البترولية التي يحتمل اكتشافها في مياه الخليج القليلة العمق.

إيكسبلوريشين D'Arcy (B. P.) Exploration company، وهي فرع من شركة بريتيش بتروليوم British Petroleum Company (التي كانت تسمى سابقاً أنجلو-إيرانيان أويل ex Anglo-Iranian Oil Company)، بالاشتراك مع لا فرانسيز دي بترول La Française des Pétroles بحصة الثلث. ومنذ بداية عام ١٩٥٤م بدأ [٢٠٦] جيولوجيو شركة دارسي إيكسبلوريشين دراساتهم، وتلاها في عام ١٩٥٥م السبر الزلزالي.

وفي بداية عام ١٩٥٨، بدأت أولى أعمال الحفر في المياه حول جزيرة داس. ومنح شيخ دبي، الذي تأتي إمارته في المرتبة الثانية بين إمارات ساحل القراصنة من حيث الأهمية، امتيازاً في قاع البحر لمدة سبعين عاماً لشركة مؤلفة في ثلثي أسهمها من شركة بريتيش بتروليوم، والثلث الباقي لشركة لا فرانسيز دي بترول. وهنا أيضاً بدأ السبر الجيوفيزيائي.

الانفرادية البريطانية

تدر الامتيازات البترولية اليوم حوالي ١٧٥ مليون فرنك فرنسي على ساحل القراصنة، ٨٠٪ منها تذهب إلى إمارة أبوظبي. إن هذه المبالغ بسيطة مقارنة بالمليارات، التي تنهال بالمئات في خزائن الكويت والمملكة العربية السعودية. ولكن، حتى لو لم يُعثر على البترول مطلقاً في ساحل القراصنة، فإنه ينبغي على بريطانيا تطويره وحمايته، بالقدر نفسه، إن لم يكن أكثر مما جرى في إمارات قطر، والبحرين، والكويت، الأكثر غنىً. ساحل القراصنة بلا بترول، هو الثمن الذي تدفعه بريطانيا للمحافظة على سيطرتها على ساحل البترول. وقد أظهرت بريطانيا في مشكلتيْ البريمي وعُمان، ما يكفي من الحزم لتثبت أن الحكومة البريطانية ترى أن مشكلات الخليج كلها كل لا يتجزأ.

تنوي بريطانيا أيضاً احترام تعهداتها بدقة تجاه الأمراء العرب، الذين تحميهم لكي لا تبوء بغضب أولئك الذين تجني من ورائهم أرباحاً هائلة، وتجعلهم حذرين منها. وهي مضطرة بسبب هذا الموقف العام أن تحافظ على زعماء هذه الدول «الصغيرة»، وأن تساندهم، لأن أجدادهم وضعوا مصيرهم بين يدي التاج البريطاني. وآية ذلك أن شيوخ الساحل وقعوا في مارس«آذار» ١٨٩٢م«اتفاقيات حصرية»، كتلك التي وقعها زعماء محمية عدن. وقد تعهد بموجب هذه الاتفاقيات[٢٠٧] كل واحد من الشيوخ ألا يقيم علاقة مع أي قوة أخرى عدا بريطانيا دون موافقتها على ذلك؛ ناهيك عن أنهم تعهدوا أيضاً ألا يتنازلوا عن أي قسم من أراضيهم لأي حكومة أخرى عدا الحكومة البريطانية؛ وتعهدوا أخيراً بإسناد مهمة علاقاتهم الخارجية، بما في ذلك علاقاتهم مع شيوخ الساحل الآخرين، إلى بريطانيا. أما الاتفاقيات اللاحقة، التي وقِّعت عامي ١٩١١ و ١٩١٢م، فقد وسعت الحصرية البريطانية لتشمل امتيازات اللؤلؤ والبترول. ويشرف بموجب هذه الاتفاقيات المبرمة لأجل غير مسمى، مقيم سياسي بريطاني على العلاقات الخارجية لساحل القراصنة، بينما يحتفظ الشيوخ بكل سلطاتهم في الداخل. يحكمون حكماً مطلقاً، ولكنهم مطالبون بمنع القرصنة، والاتجار بالرقيق، وعموماً كل ما يمكن أن يعكر صفو الأمن في البحر.

إن بريطانيا، وعلى الأصح، ممثليها المحليين، ومنذ أن حطوا رحالهم في ساحل القراصنة، وفي محمية عدن، يظهرون للزوار الأجانب في المنطقة عداء مَرَضِياً. لا يمكن لأجنبي أن يتجول على سواحل الخليج إلا بموافقة البريطانيين، وهو واحد من اثنين، إما ممن ينقبون عن البترول، وإما أنه موظف أو ضابط بريطاني. إن هذه المراقبة الشديدة لا تمنع الأفكار والعادات الجديدة من أن تتسلل، وتنتشر، وأن تأكل كالأرضة الهياكل القديمة لحياة الصحراء. ويبدو لي أن كثيراً من البريطانيين فهموا ذلك، وهذا أمر سار؛ ولكنه ما يزال هناك في لندن والخليج، حفنة من المتشبهين بلورنس، لم يلحظوا من تحت كوفياتهم، التي يحرصون على نظافتها، ما حصل من تطور في

المنطقة منذ عشر سنوات، ولا مشاعر القومية العربية المتصاعدة. ليس عليهم إلا أن ينظروا حولهم في الخليج العربي، ليفهموا أن الحصرية البريطانية أصبحت من مخلفات الماضي.

قطـــر

قطر هي إمارة أخرى من الإمارات الصحراوية [٢٠٨]، التي تنفرد بريطانيا فيها بحقوق مميزة؛ إلا أن إنتاج البترول هنا، كما هي الحال في البحرين والكويت، يقلب المعطيات القديمة كلها رأساً على عقب. تتسارع الأحداث في هذه الإمارات البترولية كلها، مما يمنح أهمية قصوى لمحاولة وصف لحظة، لن يكون لها قريباً وجود في حركة التطور المتسارعة.

تغطي إمارة قطر بالتحديد شبه الجزيرة الناتئة، التي تقسم الخليج العربي إلى قسمين. وقد نظن أن تكوينها الطبيعي يقلل من أخطار النزاعات حول السيادة عليها، ولكن الأمر ليس كذلك؛ فحدودها الداخلية لم تُرسَّم أبداً، وهي في نزاع مستمر، تارة مع إمارة أبوظبي، وطوراً مع المملكة العربية السعودية، من أجل ترسيم تلك الحدود. إن مساحة شبه جزيرة قطر ٢٠ ألف كم مربع هي امتداد صحراوي منبسط كل الانبساط، محرق ومجدب، يحيط بها ساحل متعرج، مليء بالأرصفة المرجانية. ولا مجال هنا للحديث عن تطوير الزراعة: هناك بعض الآبار، ماؤها قليل ومالح، يسقي بعض واحات أشجار النخيل، التي تشكل ملجأ للبدو. وليس هناك ما يبدد وحشة هذه الصحراء سوى الطرقات الحديثة، التي تربط بين المناطق البترولية وميناء أم سعيد، والدوحة العاصمة.

كان عدد السكان، في عام ١٩٥٤م، ٢٥ ألف نسمة، ولكنه تضاعف منذ ذلك الحين، لأن قسماً من سكان ساحل القراصنة، يجتذبه حتماً الازدهار الذي تشهده شبه الجزيرة المجاورة. ويوجد إلى جانب استثمار البترول عدد من المهن التابعة لذلك،

وتطويرها يساعد أعـداداً متزايدة من القطريين على كسب عيـشهم، وهم الذين كانوا يحصلون على ذلك من الصـيد، أو صناعة اللؤلؤ، أو تربية المواشـي. ومن الأعمال المزدهرة اليوم، مـجال البناء، وقطاع النقل بالسـيارات. لقد سـارت قطر على طريق التـحديث بعـد شيء من التـردد، ولكن مواردها التي تـزداد دائماً، فـرضت عليهـا الاقتداء بجـاراتها من الإمارات المنتـجة للبترول. ولا يفـيد الجميع بنسـبة واحدة من الثروات بداهـة. إن أكبر أغنيـاء المنطقة جنى ثـروته من الاحتكار التـام في المجالات المختلفة: إنه عـبد الله درويش[٢٠٩] «رجل الخمسين كـاديلاك»، وهو في الاتجاهين همزة الوصل بين شـيخ قطر وشركات الـبترول؛ إنه «السـيد الكبيـر» في هذا اللسان الصحراوي، المتغلغل في البحر، الذي لا فائدة أخرى تُرجى منه، إلا البترول.

البتـرول

كان امتياز بترول قطر، الذي يشـمل أرض الإمارة كلها، خلال فترة من الزمن ممنوحاً لشـركة الأنجلو- إيرانيان أويل، ثم تحول إلى بتـروليوم ديفلوبمنت قطر، وهي فـرع من شـركة العراق بتـروليوم، التي أصـبح اسمـها منذ ذلك الوقت شـركة قطر بتروليـوم .Qatar Petroleum Company (Q. P. C.) كـان الامـتيـاز يبـدأ في عـام ١٩٣٥م، ولمدة ٧٥ سنة، تنتـهي عام ٢٠١٠م. وأفـضت التنقيـبات التي بـدأت عام ١٩٣٧م إلى نتائج إيجابية منذ عام ١٩٣٩: إذ عُثر في الساحل الغربي من شبه جزيرة قطر، في مـواجهة البـحرين، في منطقـة دخان، الكثـيرة السـباخ، على بئـر صالح للاستثمار. ولكن الحرب العالمية الثانية أوقفت التنقيبات، واضطرت الشركة إلى إقفال الآبار الأولى التي حفـرتها. وأفضى اسـتئناف الأعمال في عـام ١٩٤٧م، إلى إنتاج تجاري متزايد منذ عام ١٩٤٩م. وفي فترة وجيزة، مُدَّت الأنابيب، وبُنيت مستودعات التخـزين، وأُحدثت مرافئ التعـبئة والشحـن، والمدن البترولية لسكن العـمال. وهذه لائحة بالإنتاج الخام، مقدراً بالطن المتري:

١٩٤٩	٩٦,٠٠٠
١٩٥٠	١,٦٣٢,٠٠٠
١٩٥١	٢,٣٦٩,٠٠٠
١٩٥٢	٣,٢٩٧,٠٠٠
١٩٥٣	٤,٠٦٢,٠٠٠
١٩٥٤	٤,٧٧٨,٠٠٠
١٩٥٥	٥,٤٣٨,٠٠٠
١٩٥٦	٥,٨٧٦,٠٠٠
١٩٥٧	٦,٦٤٨,٠٠٠

وعلى الرغم من تأثر الإنتاج خلال بضعة أشهر بسبب إغلاق قناة السويس في عام ١٩٥٦م، [٢١٠] فإنه عاد إلى الارتفاع، حتى تجاوز خلال عام ١٩٥٧م، الستة ملايين طن. وإذا استمرت الحال على هذا، فإن المخزون البترولي المعروف في شبه الجزيرة سينفد بسرعة. ولم تُكْتَشَفْ آبار جديدة في قطر منذ أن تم العثور على بئر دخان. ويبلغ الاحتياطي القطري حسب تقديرات عام ١٩٥٣م ملياراً ومائتي مليون برميل، تشكل نسبة ١٪ من الاحتياط الكلي المقدر في العالم غير الشيوعي[١].

ويأمل القطريون أن يتم اكتشاف البترول تحت مياه الخليج العربي. وكانت قطر أولى الإمارات التي منحت، في عام ١٩٤٩م، امتيازاً للتنقيب في قاع الخليج، على «الهضبة القارية» لشركة أخرى، غير تلك التي تمتلك امتيازها البري؛ ونتج عن ذلك

(١) الأرقام الموجودة في هذه الفقرة مأخوذة من أعداد مختلفة من مجلة بتروليوم برس سيرفيس Petroleum Press Service، وهي عموماً تزيد قليلاً على الأرقام التي تذكرها الشركات بخصوص الإنتاج، ولكنني فضلتها لأنها هي الأرقام التي يجدها القارئ غالباً.

خلاف بين شيخ قطر وشركة العراق بتروليوم، حسمته لجنة تحكيم دولية، اجتمعت في الدوحة في يناير«كانون الثاني» ١٩٥٠م، لصالح الشيخ. وحصلت بذلك شركة شل أوفرسيز إكسبلوريتنج Shell Overseas Explorating Company، التابعة لمجموعة شركات رويال دوتش-شل Royal Dutch-Shell منذ عام ١٩٥٢م ، على الامتياز البحري، الذي كانت في البدء تملكه شركة سبيريور أويل Superior Oil Company.

وبدأت شركة شل في عام ١٩٥٤م الحفر في الخليج الصغير الذي تقع عليه الدوحة، بمساعدة جزيرة اصطناعية عائمة، فريدة من نوعها في العالم. وأُنفقت على هذا العمل مئات الملايين، التي ذهبت هباء بسبب عاصفة من عواصف الخليج غير المنتظرة هبت في ديسمبر«كانون الأول» ١٩٥٦م ، وخربت أدوات الحفر كلها؛ وكانت قد كلفت ملياراً من الفرنكات، وسنتين من العمل. وعلى الرغم من ذلك، أعلنت شركة شل، في بداية فبراير«شباط» ١٩٥٧م، تصميمها على العودة إلى أعمال السبر من جديد في مكان آخر، واستئجار رصيف عائم للحفر من شركة أخرى. ويدل هذا الإصرار على وجود آمال باكتشاف آبار بترولية هامة على الهضبة القارية.[٢١١] إن مورد قطر الرئيسي هو العائدات البترولية؛ ويخصص شيخها قسماً كبيراً منها، لتحسين مستوى حياة رعاياه، الذين يبلغ عددهم بضعة آلاف. ومنذ عام ١٩٥٢م وقع شيخ قطر اتفاقاً جديداً لتقاسم الأرباح، مناصفة بينه وبين الشركة، مما جعل عائداته تصل إلى ما يقارب ١٥ مليون دولار في عام ١٩٥٥م.

إن الدوحة، ذات البيوت الطينية، عاصمة الإمارة الصحراوية، في طريقها لأن تصبح مدينة حديثة، شوارعها مرصوفة الشوارع، مضاءة بالكهرباء ومياه البحر المحلاة، العذبة، تسيل من الصنابير في منازلها.

شيء واحد لم يتغير بعدُ في قطر، إنه نظام الحكم المطلق، الذي يحكم بموجبه الشيخ علي بن عبد الله بن قاسم آل ثاني، الذي خلف والده في عام ١٩٤٩م.

ويساعده ولده أحمد. وهناك مستشار بريطاني، هو السيد هانكوك Hancock، يعاون الأمير في تصريف شؤون البلاد الداخلية، على رأس ثمانية من كبار الموظفين البريطانيين. أما شؤون الخارجية والدفاع، فهي في يدي وزارة الخارجية البريطانية، عَبْر المقيم السياسي البريطاني في قطر، السيد كاردن D. C. Carden.

وتمارس بريطانيا هذه السلطات بموجب اتفاقيات تشبه الاتفاقيات المعقودة مع دول ساحل القراصنة، التي تمنحها حق الحصرية في العلاقات والامتيازات. وقد أُكملت الاتفاقية الأولى، الموقعة في ٣ نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩١٦م، باتفاق جديد في عام ١٩٣٤م حدد مفهوم الحماية البريطانية ووسعها. وعلى الرغم من أن محتواه لا يختلف كثيراً عن الاتفاقات المعقودة مع الشيوخ الآخرين على ساحل القراصنة، فإن علاقات حاكم قطر أكثر متانة مع قوة الحماية.

البحرين «لؤلؤة الخليج»

اشتهرت إمارة البحرين قديماً بمصائد اللؤلؤ، وتتشكل من مجموعة من الجزر، أكبرها جزيرة البحرين التي سميت الإمارة باسمها. والبحرين مقر المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، وتختلف عن جاراتها في عدة نواحٍ.

فمساحة الأرخبيل كلها لا تزيد عن ٥٥١ كيلومتراً مربعاً، وهناك إلى جانب الجزيرة الكبرى، جزيرتان من الجزر الخمسة مأهولة. وعلى الرغم من صغر مساحتها، فإن سكان «لؤلؤة الخليج»[٢١٢] كثيرون، ومختلطون، وسريعو الغضب، نصفهم يسكنون المدن، ونصفهم قرويون. وإن توفر الينابيع الطبيعية المتفجرة في شمال جزيرة البحرين، يتيح إمكانية تطور زراعي فريد، تكلل في عام ١٩٥٧م بمظهر لا سابق له: المعرض الزراعي الأول في الخليج العربي!

أما السكان، الذين يقدر عددهم بـ١٢٥ ألف نسمة، فسدسهم من الجاليات الأجنبية ، وفي مقدمتها الجالية الفارسية، ثم الهندية، والإنجليزية-الهندية، والباكستانية. وهناك جماعات أقل عدداً، جاءت من البلاد العربية الأخرى، ومن إمارات الخليج. ونجد بين القادمين من البلدان العربية الأخرى«المثقفين» (من المصريين، والفلسطينيين، والعراقيين، واللبنانيين والسوريين)، وهم قلة إلا أن لهم نفوذاً كبيراً، ونجد السودانيين والعُمانيين، والقطريين، واليمنيين، وغيرهم، يتفاوتون في اندماجهم في المجتمع البحريني. ويعيش في البحرين ٢٠٠٠ بريطاني، و٤٠٠ إلى ٥٠٠ أمريكي وأوروبي. ويعيش ثلاثة أخماس السكان في المدن الثلاثة: المنامة، والمحرق، والحد، ويتوزع الباقي في ٩٠ قرية ومزرعة. وهناك بضعة آلاف يعيشون في مراكبهم باستمرار.

التطور الاقتصادي والنزعة القومية

٩٦٪ من سكان البحرين، مسلمون، ولكن الصفة الرئيسية للمجتمع البحريني هي تنوعه المذهبي، وآية ذلك أن المسلمين ينقسمون إلى شيعة وسنة، ويؤدي اختلافهم في بعض الأحيان إلى حصول بعض الاضطرابات. ولا يسكن السنة والشيعة عادة في القرى نفسها، لأن هؤلاء يشكلون جماعات متضامنة. وحصلت بين الطرفين بعض المناوشات؛ ويبدو الآن أن النزعة القومية ستقضي على أسباب الفرقة بين أبناء المذهبين، لمجابهة الهنود والفرس، الذين يمارسون التجارة، ويعملون لحساب شركات البترول. لقد اختفى اليهود تقريباً من البحرين بسبب ازدياد النقمة عليهم بعد إقامة دولة إسرائيل.[٢١٣] وعلى الرغم من أنهم أقلية، يتصرف السنة، وكأنهم الأكثرية، وهو وضع يذكر بوضع اليمن.

تحكم أسرة آل خليفة البحرين منذ قرنين، وهم من السنة، ويتولى السنة المراكز

القيادية في الدولة. ويشكو الشيعة الفقـراء، الذين يحتلون المراكز الدنيا في المجتمع، من التمـييز والمضايقـة المقصودين. ولكن مـا حدث من تطور في المجتمع البـحريني جعلهـم يتخلون عن العـمل خدماً، وعـمالاً بعـد أن تركوا الزراعـة التقليـدية. أما «الأنتلجنسيـا» العربية، التي تتـمتع بحظوة كبـيرة، فهي تزود البـحرين بالمعلمين، أو بموظفي شركات البترول؛ وأظن أنه من الصواب أن نطـلق عليهم في البحرين وغيرها لقب«رسل القومية العـربية». لقد حول القوميون الاضـطرابات المعتادة في الإمارة بين السنة والشيعة إلى نقمة عارمة ضد الأجانب، وخصوصاً ضد البريطانيين. إن البحرين أكثر إمارات الخليج اضطرامـاً، لأن النهضة الاقتصادية، الناتجة عن الصناعـة البترولية جعلتها تربة صالحة لنمو الشعور القومي.

لقد عرفت البحرين على الدوام ازدهاراً نسبياً بفضل موقعها الجغرافي، وعيونها العجيبة، وصناعة اللؤلؤ القديمة فيـها، والتجارة البحرية المزدهرة، وإن حقول أصداف اللؤلؤ فيها أغنـى الأرصفة في المنطقة، وقد كان نصف السكان في الجـزر البحرينية، حتى ظهـور اللؤلؤ الاصطناعي، يعملون في الغـوص على اللؤلؤ. وفي غيـر موسم الغطس ينصرف البـحارة والغطاسون البحـرينيون إلى صيد السمك والـتجارة. ولكن صناعة اللؤلؤ تـشهد اليـوم تقهقـراً مستـمراً في الخليج كله، ولا يكاد يعـمل بها في البحرين إلا ألفا شخص تقريباً في موسمها.

إن التجارة البحرية، وتجارة التـرانزيت، هي النشاط التقليدي الذي يحتل المرتبة الثانية في البـحرين، فهي تستورد كمـيات كبيرة من البضـائع من كل الأنواع، وتعيد بيعـها لجـيرانهـا. وقد أُقيـمت منشآت جـديدة في المنامة [٢١٤]، الميناء الـرئيسي، وعاصـمة البحـرين، بهدف تسهـيل حركة المبـادلات التجاريـة، وفي ١ يناير«كانون الثاني» ١٩٥٨م، أصبحت جزيرة البحـرين منطقة تجارية حرة، هي الأولى من نوعها في الخليج. وفي الداخل يـزرع الفلاحـون الحـبوب، والأعـلاف، ونخـيل التمـر، والخضـار. أما النصف الجنوبي من الجـزيرة، فهو صـحراوي، ينابيـعه وبركه مـالحة

غالباً. وتُزوَّد المدن بمياه البحر المحلاة. وهناك ألف وست مئة هكتار من الأراضي الزراعية المروية، ومزرعة البدَيِّع التجريبية، تُزرع فيها أنواع جديدة من الزراعات الغذائية، يُنتقى أحسنها إنتاجاً، ويوزع على المزارعين.

وفي نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٧م، أُقيم أسبوع التنمية، برز خلاله الاهتمام بقضية الماء عَبْرَ قيام الشيخ، عند تدشينه بتشغيل حفارة آلية مخصصة لشق أقنية جر المياه.

شركة البحرين بترولیوم

على الرغم من أن البحرين أقل غنى من جيرانها، إلا أن قسماً كبرياً من مواردها يأتي من عائدات الصناعة البترولية ، التي تتوزع بين الاستخراج والتكرير.

إن اكتشاف البترول في جزيرة البحرين شد انتباه شركات البترول إلى هذا القسم من الخليج، مثلما كان اكتشافه في بئر مسجد سليمان في إيران الحافز الذي جعل صيادي الامتيازات يتسابقون إلى المنطقة.

في بادئ الأمر، حصلت شركة الميجور هولمز Major Holmes البريطانية للبترول، على امتياز التنقيب في جزر البحرين، قبل أن تصبح في عام ١٩٣٠م ملكاً للشركة الأمريكية ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا Standard Oil of California، التي أنشأت لهذا الغرض فرعاً كندياً لها باسم البحرين بترولیوم Bahrain Petroleum Company - BAPCO . وقد كان تعاونها في عام ١٩٣٤م مع شركة تكساس أويل Texas Oil Company تمهيداً لتأسيس مجموعة شركات كالتيكسCaltex الضخمة، التي تمتلك ٦٠٪ من أرامكو في المملكة العربية السعودية. إن البحرين بترولیوم شركة ذات جنسية كندية، برأس مال وإدارة أمريكيين، والموظفون الكبار فيها أغلبهم من البريطانيين.

لقد اكتشف البترول في عام ١٩٣٢م، في العوالي، جنوب غرب المنامة، وبدأ استثماره منذ عام ١٩٣٤م. ولا يمكن إلا بصعوبة زيادة إنتاج البحرين المتواضع من البترول بسبب التركيب الجيولوجي للمنطقة التي توجد فيها آبار البترول. وفي كل سنة ينبغي حفر ١٠ إلى ١٢ بئراً جديداً [٢١٥] للمحافظة على مستوى الإنتاج؛ وقد وصل إلى أعلى حد له في عام ١٩٤٨م، بإنتاج قدره ١,٥٠٠,٠٠٠ طن سنوياً. وقد كان الاحتياطي في عام ١٩٥٣م مقدراً بـ ٨٠٠ مليون برميل. أما تكرير البترول، الصنف الثاني من الصناعة البترولية في البحرين، فقد شهد توسعاً مستمراً، مستفيداً على وجه الخصوص من إغلاق المصفاة العملاقة في عبدان، إبان الأزمة البريطانية الإيرانية (١٩٥١-١٩٥٤م).

أما مصفاة البحرين فقد أُنشئت عام ١٩٣٦ في سترة. وارتفعت طاقتها السنوية من ٦٦ مليون برميل في عام ١٩٥١م، إلى ٧٨ مليون في عام ١٩٥٤م، أي حوالي ١٠ مليون طن. ولكن تطور منشآت المملكة العربية السعودية والكويت حدَّ من تطور مصفاة سترة. ويأتيها القسم الأعظم من البترول الخام، الذي يُكرر فيها من آبار الأحساء، بوساطة أنابيب تحت البحر، يبلغ طولها ٢٦ كم. ومنذ عام ١٩٥٣م تتلقى المصفاة أيضاً البترول الخام من سومطرة؛ وإن كمية الخام المكرر، الذي يأتي من الإنتاج البحريني، مستقر تقريباً على ١١ مليون برميل سنوياً، مقابل ٦٣ مليون من المملكة العربية السعودية.

إن شركة البحرين بتروليوم توظف ٩ آلاف شخص، وإن ازدهار الحقول النفطية المجاورة الشاسعة، والنشاط التجاري المتزايد في كل أنحاء الخليج، كل ذلك، يضع البحرين في موقف صعب. فعائداتها البترولية تبلغ حوالي مليونين ومئتين وخمسين ألف جنيه إسترليني في السنة منذ اتفاق تقاسم الأرباح في عام ١٩٥٢م. أما العائدات الجمركية، المورد الثاني من موارد الإمارة، فهي تقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم مخصص للأمير وأسرته، ويذهب القسم الأكبر منه للهبات التقليدية؛ وقسم ثان يستثمر في

أسواق المال ويدر أرباحاً كبيرة وتشكل فوائده مورداً من موارد الإمارة أيضاً؛ والقسم الثالث يستخدم لدعم المواد الغذائية الأساسية لبرنامج اجتماعي ضخم. وقد بُذِلت في السنوات الأخيرة جهود كبيرة في حقليْ التعليم، والرعاية الصحية، ويمكن للإمارة أن تفخر بشبكة كبيرة من المدارس والمستشفيات، والمستوصفات ذات المستوى العالي.

النزاع البريطاني-الإيراني

تدين البحرين في جانب كبير من تطورها السياسي والاجتماعي [٢١٦] لعلاقاتها الطيبة مع بريطانيا، تلك العلاقات التي ترجع، شأنها شأن العلاقات مع بقية دول ساحل القراصنة، إلى الاتفاقية المعقود عام ١٨٢٠م مع شركة الهند الشرقية. ثم تلاها اتفاقات ٢٢ ديسمبر«كانون الأول» ١٨٣٠م، و١٣ مارس«آذار» ١٨٩٢م، التي فرضت على شيخ البحرين الالتزامات نفسها، المفروضة على بقية الشيوخ في الخليج العربي، والتي تتعلق بالحقوق الحصرية لبريطانيا. وأخيراً وعد حاكم البحرين في رسالتين تعودان إلى ١٩١١ و ١٩١٢م، البريطانيين ألا يمنح أي امتيازات تخص اللؤلؤ أو البترول، دون استشارة ممثل جلالة ملك بريطانيا وموافقته. والحاكم الحالي الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، خلف والده عام ١٩٤٢م، وهو يحكم منذ ذلك الحين بمساعدة مستشاره البريطاني السير تشارلز بلجريف .Charles Belgrave[1] أما أخطر الاعتراضات على وضع البحرين، فقد بدرت من إيران، التي تطالب بالجزر البحرينية منذ عام ١٨٢٩م، وتتهم بريطانيا باختلاس السيادة عليها. لقد جاء في المادة السادسة من اتفاقية جدة بين المملكة العربية السعودية وبريطانيا في عام ١٩٢٧م، أن البحرين دولة مستقلة، تربطها علاقات خاصة مع بريطانيا، مما أثار غضب الإيرانيين الذين رفعوا شكوى إلى عصبة الأمم. وتزعم إيران أن هناك مذكرة، مؤرخة في ٢٧ أبريل«نيسان» ١٨٦٩م، صادرة عن وزير الخارجية البريطاني، اللورد

(١) نشر هذا المستشار مذكراته في كتاب باللغة الإنجليزية ترجمها مهدي عبد الله تحت عنوان : مذكرات بلجريف، متشار حكومة البحرين سابقاً،ط١، البحرين مكتبه الريف الثقافية؛ بيروت ، دار البلاغة. ١٤١١هـ / ١٩٩١م (المنيف) .

كلاراندون Lord Clarendon، فيها اعتراف صريح بالسيادة الإيرانية على البحرين، وهو ما تكذبه بريطانياً بشدة.

وقد كان منح الامتيازات البترولية عام ١٩٣٠م، و ١٩٣٤م، موضع احتجاج شديد من حكومة الشاه؛ وعندما قصفت القاذفات الإيطالية القاعدة البريطانية في البحرين، في أكتوبر«تشرين الأول» ١٩٤٠م، احتجت إيران، التي كانت ما تزال على الحياد، لدى السلطات الإيطالية على قيام طائراتها«باختراق مجالها الجوي». وفي عام ١٩٤٦م، عادت إيران إلى المطالبة بالبحرين من جديد، تدعمها وسائل الإعلام الروسية، مما أدى إلى تعزيز القواعد البريطانية في البحرين. وأدى الخلاف البريطاني الإيراني إلى إثارة قضية المطالبة الإيرانية من جديد، وفي عام ١٩٥٢م، جدد الدكتور مصدق المزاعم الإيرانية، التي لم تتخل عنه حكومة زاهدي. وقبل الاجتماع الأول لأعضاء حلف بغداد، الذي عُقد في كراتشي، صرح الدكتور علي أردلان، وزير[٢١٧] الخارجية الإيراني في ٧ أبريل«نيسان» ١٩٥٦م في طهران أن «البحرين كانت جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية الفارسية»، وتلقى سفراء الدولة الفارسية، تعليمات تطلب منهم الاحتجاج بشدة ضد أي عمل لا يتفق مع مبدأ السيادة الإيرانية على البحرين.

وفي ١٢ نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩٥٧م، أعلنت حكومة طهران «ضم» أرخبيل الجزر البحرينية، الذي أصبح المحافظة الإيرانية الرابعة عشرة. وقد كانت الحكومة الإيرانية منذ زمن طويل، ترفض جوازات السفر التي تحمل تأشيرة «أجنبية» للبحرين، وهو أمر يتعارض مع مزاعمها بالسيادة على الأرخبيل. وعينت طهران حاكماً إيرانياً للبحرين، ولكن بريطانيا اكتفت بإعادة تأكيد استقلال الإمارة، في ظل حمايتها.

لم يكن ذلك إلا تذكيراً بالخطوط الرئيسية للخلاف البريطاني الإيراني بشأن البحرين؛ ويشهد هذا الموجز في رأيي على استمرارية إيرانية واضحة في مطالبة ليس لها أي أمل في الوصول إلى شيء في المنظور القريب: لأنه أمر لا ترضى به البحرين، ولا أي دولة عربية أخرى. أما بريطانيا فإن الأرخبيل هو موقع حراسة

بالنسبة إليها، وقاعدة وجودها في الخليج، ميناؤه قاعدة بحرية، ومطاره قاعدة جوية، والمنامة مقر المقيم السياسي البريطاني في الخليج العربي، يرعى منها السير برنارد بوروز Bernard Burrows المصالح البريطانية. وقد أدت الأحداث التي وقعت في شرقي الجزيرة العربية، في عُمان، و البريمي، وتخريب المنشآت في مناطق الاستثمارات البترولية، إلى تشديد القبضة البريطانية على البحرين. و أظن أن قرار «الضم» الإيراني، تولد عن الغيظ الذي تلا إعلان إنشاء منطقة حرة في المنامة. ومهما يكن من أمر فإن إيران قد أظهرت إصراراً عجيباً على مطالبها.

الإدارة الداخلية

إن أمر العلاقات الخارجية والدفاع في إمارة البحرين، كما هي الحال في بقية إمارات الخليج، هي في أيدي البريطانيين، الذين يمثلهم المقيم السياسي، الذي يختلف عن المقيم العام. وفي الداخل [٢١٨] يحكم الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة، يساعده مجلس استشاري، مؤلف من أعضاء من أسرته، ومجموعة من كبار الموظفين البريطانيين، أعلاهم قدراً، والمستشار الخاص للحاكم، هو السير تشارلز بلجريف، الذي يقيم في البحرين منذ عام ١٩٢٦م.

وإن الاضطرابات التي بدأت منذ عام ١٩٥٤م بإضراب عام، كانت موجهة ضد السير تشارلز، الذي يبدو أنه قد عُزل من منصبه في عام ١٩٥٧م بسبب الضغط الشعبي.

إن النظام في البحرين نظام حكم مطلق، يخفف من شموليته وجود مجالس للصحة والتعليم، يتم انتخاب نصف أعضائها منذ عام ١٩٥٦م، والآخرون يعينون تعيناً. ويُختار أعضاء المجالس البلدية في مدن المنامة، والمحرق، والحد، والرفاع، بالطريقة نفسها. وهناك لجان خاصة مكلفة بشؤون أقسام خاصة من الإدارة. وعلى

الرغم مما في نظام الحكم في البحرين من نـواقص فإن حكومة البحرين متـقدمة جداً على أنظمـة الحكم المجـاورة. ومع ذلك تزمـجـر المظاهرات عـلى الدوام في «لؤلؤة الخليج». وقد جرت أحداث خطيرة في عام ١٩٥٦م، عندما مر بالجزيرة السيد سلوين لويد Selwyn Lioyd، وزير خارجية بريطانيا، واضطـرت السلطات إلى تأخير موعد مغادرته مـدة أربع ساعات، بسبب المظاهرات المعـارضة. وفي نوفمبر«تـشرين الثاني» ١٩٥٦م، كان للهجوم على بورسعيد ردة فعل مـباشرة، وعنيفة، تجسدت على الفور بمظاهرات عارمة، وتخريب، استدعيا إرسال تعزيزات عسكرية محمولة جواً. واعتقل عـدد من قـادة المظاهرة، وفـرضت رقـابة شـديدة علـى الصـحف، وأُعلنت حـالة الطوارئ. وفي يناير«كـانون الثاني» ١٩٥٧م، تجـددت المظاهرات، بعد أن أُديـن عدد من الزعماء الوطنيين. إن المنـاخ السياسي السيئ في البحـرين، يسوغ المخاوف، التي يعرب عنه عادة أولو الأمر في الخليج، بخصوص تطور دول الخليج العربي.

الفصل الخامس عشر

[٢١٩] الكـــويـت العجيبـــة

إن الكويت، بلا شك، أشهر الإمارات العربية على الخليج. إن ثروتها البترولية الضخمـة، وتطورها السريع، يجعلان من العـسير، بل من المستحـيل، الحديث عنها دون استخدام صيغ الـتفضيل والمبالغة. لقد انتشـرت الثروة على الكويت انتشار النار في الهشيم، وتكاد أثارها تظهر على كل الناس. وإن الحكايات العربية عن مغامرات علاء الدين العجيبـة، الرائعة، تغدو باهتة، ولا قيمة لها أمام المعـجزة الكويتية. لقد حصل أميـرها، الثري الجديد، في عام ١٩٥٦م، ما يعادل ثلاث أو أربع مـئة مليون فرنك في اليوم بالدولار والجنيـه الإسترليني. ومن المتوقع أن يتضاعف إنـتاج البترول خلال السنوات الخـمس القادمة. وتـنافس الكويت المملكة العربيـة السعودية بأهمـية كمـيات البترول الاحـتياطيـة المعروفة فيـها، مع أن مسـاحتها أقل بمائة مـرة. وإمارة الكويت، صحـراء مستوية، ليس فـيها مـاء عذب، ولا زراعة، وليست إلا إسـفنجة مضمخة بالبترول، ويتداول الناس بشأنها طرفة تناقلتها الألسن عبر العالم:

في عام ١٩٥١م، توجـه مبعـوثو الأمير إلى الولايـات المتحدة الأمـريكية، في مهمة مخصـصة للحصول على مصافٍ لتحلية مياه البـحر. وقد شُدِه الأمريكيون من إمكانية أن يعيش البشر في بلد خالٍ من مياه الشرب تماماً، فنصحوا المبعوثين الكويتيين قائلين:

- ولكن افعلوا أي شيء، احفروا آباراً!

- أجاب الكويتيون باشمئزاز : مستحيل !.

ـ لأننا ما إن نحفر حتى ينبجس البترول !

وسواء كان ذلك صـدقاً أو كذباً، فإن هذه القصـة تلخص حالة الكويت كله، بلد عـجيب من بلاد الذهب الأسـود، لا يعيش إلا للبـترول وبالبـترول. لقـد تحول

البحارة المساكين، والصيادون، الذين كانوا يقيمون حول مرفأ طبيعي صغير على الخليج، هادئ، أزرق، خلال عشر سنوات إلى تجار، وأصحاب مشاريع بناء، ورجال أعمال. وإن أقلهم حنكة يعمل في الشركات البترولية، أو للشركات الخاصة بأجور خيالية. لقد أُزيلت مدينة الكويت، العاصمة القديمة، التي تثير الإعجاب، وأُقيمت على أنقاضها مدينة حديثة، تنتشر فيها الأبنية الفخمة البيضاء على امتداد الشوارع العريضة، المستقيمة. وتسير متهادية على الطرقات العريضة المعبدة، التي حلت محل الطرقات القديمة، سيارات البويك Buick، والكاديلاك، التي جعلت الكويتيون ينسون الجمال القديمة. والماء العذب، هذا الترف الذي كان في الماضي يكلف الكثير، يسيل اليوم من الصنابير المنكّلة في البيوت المكيفة. وإن اللافتات الضوئية، التي تشق ظلمة الليل بأنيابها المختلفة الألوان، تذكر بمحطة سان-لازار Saint-Lazare، وببيكاديللي Piccadilly، أكثر مما تُذكِّر بسوق شرقي.

إن الظروف الاستثنائية، جعلت من الكويت أكثر بلاد الشرق معاصرة، حقل اختبار اجتماعي عجيب، تعبر فيه العينات البشرية خلال بعض السنين قروناً طويلة من التطور.

بحارة وبناة مراكب

يتجمع سكان الكويت عموماً على الساحل، حول جونها الرائع. وتضم مدينة الكويت ١٢٠ ألف نسمة على الجانب الجنوبي للساحل، ويتوزع ٨٠ إلى ١٠٠ ألف آخرون على عدد من القرى والمراكز البترولية. وفي جنوب الجون الطبيعي بُني الميناء البترولي المسمى: ميناء الأحمدي. إن موقع الإمارة في الزاوية الغربية من الخليج، يجعل منها الميناء الطبيعي لبلاد الرافدين، ولشمالي الجزيرة العربية. وأعلن العراق منذ مدة عن رغبته في إنشاء ميناء بترولي، ولكنه اصطدم بمعارضة الأمير وحذره، نظراً

للأطماع العراقية القديمة في أرض الكويت. وقد رُسِّمت حدود الكويت، التي تفصلها عن جارتيها الكبيرتين، العراق، والمملكة العربية السعودية، بموجب برتوكولات العقير[1] ؛ ويقع على تلك الحدود امتداد مسطح من الصحراء القاحلة، يترحل فيها حوالي ١٠ إلى ٢٠ ألف بدوي. وقد قسم ذلك الموقع إلى منطقتين «منطقتين محايدتين»، الأولى في الجنوب، والأخرى في الداخل من الوراء.

إن المنطقة المحايدة الجنوبية، التي تحاذي الخليج بين الأحساء والكويت، تخضع للسيادة المشتركة [٢٢١] السعودية، الكويتية. لقد تحدثت فيما مضى عن السبب الوحيد، الذي يدعو للاهتمام بهذه المنطقة، وهو استثمار البترول؛ وحقوق الكويت في المنطقة مُنِحت لشركة أمريكان أنديباندنت أويل American Independent Oil Company -AMINOIL، وهي مجموعة من عشر شركات أمريكية«مستقلة»، تعمل بالتعاون مع شركة جيتي أويل Getty Oil Company، صاحبة الامتياز السعودي.

الكويتيون كلهم من أصل عربي، وهم المسلمون من السنة؛ وهناك ١٠٠٠ إيراني، يقيمون في العاصمة منذ القرن الثامن عشر. ولم تتعرض الكويت لأشكال النفوذ الأجنبية، التي رأيناها في البلاد الأخرى، الواقعة تحت الحماية في الخليج.

لقد كان الموقع الجغرافي الفريد للجون الطبيعي على ساحل الخليج، حافزاً لتأسيس الدولة، التي حملت اسم الكويت. وقد فرض الجون أيضاً خلال فترة طويلة الأعمال التي زاولتها غالبية سكانها؛ فهم بحارة، وغطاسون على اللؤلؤ، وبناة مراكب، مشهورة بجؤجؤها المزين بالنقوش.

ومنذ أن بدأ عصر البترول، بدأت هذه المهن القديمة بالتلاشي، وبدأ السكان يختلطون بالمهاجرين العرب الذين جاءوا من مناطق الخليج الأخرى، ولاسيما العراقيين، ناهيك عن «الأنتليجنسيا» العربية، التي لا يمكن تجاهلها.

(١) تمت هذه البروتوكولات بين العراق والمملكة العربية السعودية في ١٢ ربيع الآخر ١٣٤١هـ الموافق ٢ ديسمبر١٩٢٢م وألحق بها ملحق وقع في ٢٤ رجب ١٣٤١هـ الموافق ١٣مارس١٩٢٣م، انظر الأطلس التاريخي، م.س ص ٢٢٨ (المنيف).

كان الكويتيون فيما مضى يمارسون الأعمال التي لها علاقة بالبحر. وكان جَلَد بحارتها، وروعة سفنها، مصدر شهرة الكويت. وبعد أن كان البحارة الكويتيون غاصة على اللؤلؤ، وصيادون في مواسم الصيد، أصبحوا اليوم يهتمون بالتجارة البحرية بين الخليج العربي، والهند، وإفريقيا؛ يحملون في الذهاب تمور البصرة اللذيذة، ويعودون بأحمال الأخشاب، التي يستخدمونها في بناء زوارق سريعة تحمل مئات الأطنان. هذه المراكب المشهورة من بومباي إلى زنجبار، وفي المحيط الهندي كله، وحتى في البحر الأحمر، هي مصدر اعتزاز وطني للكويتيين.

ولما أراد الأمير السابق أن يقتني يختاً، اختار أن يجري بناؤه في الورش المحلية بدل أن يطلبه من الخارج. ومازال الكويتيون يستوردون الخشب من مالابار، غير أن صناعة بناء المراكب، شأنها شأن صناعة اللؤلؤ، هي في تقهقر مستمر في منطقة الخليج كلها. ليس في الكويت، المحرومة من المياه،أية زراعة [٢٢٢]، وعليها أن تستورد كل المواد الغذائية الضرورية، وتحصل على مياه الشرب من محطتيْ تحلية مياه البحر، اللتين تعملان ليل نهار. كان الماء الصالح للشرب يُجلب في السابق في مراكب من شط العرب في العراق، على مسافة ٨٠ كم من الكويت؛ وكان يُنْقل في خزانات ضخمة من الخشب، وكان يُباع من ميناء إلى أخر في قِرَب من جلد الماعز. وبدأ التفكير في جر المياه من شط العرب منذ موجة الازدهار العظيم، الذي شهدته الكويت. وسيوفر هذا المشروع، في حال إنجازه، إمكانية تنمية زراعية محدودة، ولكننا نتساءل، عمن يود أن يعمل في الزراعة في بلد أصحاب الملايين ؟ وقد بدأت شركات البترول تجد صعوبة في الاحتفاظ باليد العاملة المحلية التي تدربها؛ لأنه من السهولة بمكان أن يكوِّن المرء ثروة، مما جعل ذوي الكفاءات والحيوية يفضلون تجربة حظهم في الأعمال الحرة. وهذه المشكلة ليست وقفاً على الكويت وحدها، إنها مشكلة جميع المناطق البترولية في الخليج العربي.

الكـويت أويـل كومبانـي

حصلت شـركة الكويت أويل Kuweit Oil Company في عام ١٩٣٤م، على امتياز يشـمل الأراضي الكويتية كلها، مدته خـمسة وسبعين عاماً. أمـا الاتفاق الجديد حول اقتسام الأرباح، الذي وقع في عام ١٩٥١م، فقـد جُدِّد بموجبه الامتياز لمدة ٧٥ عاماً، بدءاً من ديسـمبر«كانون الأول» عام ١٩٥١م. وشركـة الكويت أويل، مسجلة في كندا لمراعاة الحقـوق البريطانية الحصرية، وتتـألف من قسمين متسـاويين تمتلكهما شركـتا دارسي كـويت أويل (B. P Arcy D')، وهي فـرع من الشركـة البريطانيـة القحـة، بريتيش بتـروليوم British Petroleum Company، وشركة غـولف كويت أويل Gulf Kuweit Oil Company، وهي فرع من الشركة الأمريكية الضخمة غولف أويل كوربوريشين .Gulf Oil Corporation واتفقت الشركتان شركتين على أن تستعيد كل منهما استقلاليتها بمجرد أن تبدأ الكويت بتصدير بترولها.

اكتُشِف أول بئر بترولي في عام ١٩٣٨م، بعد كان التنقيب الأولي غير مجدياً. ومنذ اللحظة الأولى، بدا أن الآبار هي من أهم الآبار في العـالم جيولوجيـاً وغزارة، فما من بئـر في الكويت يتجاوز عمقـه ١٥٠٠ متر، وشروط [٢٢٣] الاستـثمار هي على العموم اقتصادية. ناهيك عن أن قرب البحر ، وكـونه في مستوى أكثر انخفاضاً من الحقـول، يسمح بإرسـال البترول الخـام للساحل دون حاجـة إلى الضخ. وعلى الرغم من هذا كله، وبسـبب الحرب العالمـية على وجه الخـصوص، لم يبـدأ الإنتاج التجاري إلا في عام ١٩٤٦م، ليصل بسرعة إلى أرقام قياسية.

إن الإمكانيات البـترولية الكويتيـة الضخمة كـانت موضع اختبـار خلال الأزمة البريطانيـة-الإيرانية، وما تلا ذلك من توقف الشـركة الأنجلو-إيرانية، شريكة شـركة بريتيش بتروليوم، عن الإنتاج في إيران على الجانب الأخر من الخليج العربي.

تقدم خيالي

في يونيو«حزيران» ١٩٤٦م، توجهت أول شحنة من البترول الخام الكويتي نحو أوروبا؛ ٨٠٠ ألف طن من البترول، المستخرج في هذه السنة، درَّت على الشيخ مبلغ ٨٠٠ ألف دولار. وفي عام ١٩٥٠م، بلغ الإنتاج ١٧ مليوناً و ٣٠٠ ألف طن، درت على الأمير ١٢ مليوناً، و ٤٠٠ ألف دولار. وفي عام ١٩٥١م جاء الاتفاق الخاص باقتسام الأرباح بالتساوي، وفي عام ١٩٥٦، وعلى الرغم من تخفيض الإنتاج بسبب أحداث بورسعيد، بلغ الإنتاج ٥٥ مليون طن، درت على الشيخ ٣٠٠ مليون دولار، ناهيك عن عائدات المنطقة المحايدة. وتتوقع الشركة أن تزيد الإنتاج في السنوات القادمة ليصل حتى عام ١٩٦٢م، إلى ١٧٥ أو ١٨٠ مليون طن؛ أي ما يعادل الإنتاج الكلي للشرق الأوسط بأسره في عام ١٩٥٦م. إن التغيرات الجذرية التي حصلت في الكويت توضحها الأرقام التالية: ارتفاع الإنتاج من ٨٠٠ ألف طن إلى ٥٥ مليون طن خلال عشر سنوات، وارتفعت العائدات من ٨٠٠ ألف دولار إلى أكثر من ٣٠٠ مليون دولار في الفترة نفسها. ويُنتظر أن يتضاعف هذا الرقم ثلاث مرات في السنوات الخمس المقبلة.

ويبين الجدول التالي بأرقام صحيحة الارتفاع الذي شهده الإنتاج منذ عام ١٩٤٦م:

١٩٤٦ ..... ٨٠٠,٠٠٠ طن.

١٩٤٧ ..... ٢,٢٠٠,٠٠٠ طن

١٩٤٨ ..... ٦,٣٠٠,٠٠٠ طن

١٩٤٩ ..... ١٢,٤٠٠,٠٠٠ طن

١٩٥٠ ..... ١٧,٣٠٠,٠٠٠ طن

١٩٥١ ..... ٢٨,٢٠٠,٠٠٠ طن

١٩٥٢ ..... ٣٧,٦٥٠,٠٠٠ طن [٢٢٤]

١٩٥٣ ..... ٤٣,٣٠٠,٠٠٠ طن

١٩٥٤ ..... ٤٧,٧٠٠,٠٠٠ طن

١٩٥٥ ..... ٥٤,٧٥٠,٠٠٠ طن

١٩٥٦ ..... ٥٥,٠٠٠,٠٠٠ طن

١٩٥٧ ..... ٥٧,٣٠٠,٠٠٠ طن

لا يمكن أن نعدَّ سنة ١٩٥٦م، ولا سنة ١٩٥٧م سنتيْ إنتاج طبيعي بسبب العدوان الثلاثي على بورسعيد. وقد عرفت الكويت، شأنها شأن الإمارات الأخرى، تدميراً طال بعض المنشآت، وقد جعل تعذر وصول الناقلات المفاجئ، الإنتاج في عام ١٩٥٦م على وجه الخصوص يهبط إلى النصف. ولم يعد المعدل الشهري إلى مستواه السابق إلا ابتداء من شهر يونيو«حزيران» ١٩٥٧م.

كان احتياطي الكويت من البترول يُقدر في عام ١٩٥٣م بـ ١٨ مليار طن، و٢٠٠ مليون برميل، أي ١٥٪ من مجموع احتياطي العالم غير الشيوعي. وفي عام ١٩٥٥م، قُدِّرت هذا الاحتياطي بـ ٢٥ مليار برميل. وإن الحقول الجديدة المكتشفة حديثاً في الشمال، لم يجرِ بعدُ تقدير مخزونها، تضيف إلى إنتاج الكويت الأخير عدداً لا يستهان به من البراميل.

يقع الحقل الرئيسي على بعد حوالي ٤٠ كم إلى جنوب مدينة الكويت، وأشهر آباره المنتجة البُرْقان[1]، والمَقْوَع. ومنذ عام ١٩٥٦م، حصلت الشركة على نتائج

(١) ينطقونها البرجان، وهي محرفة عن كلمة البركان (المترجم).

واعدة، عندما حفرت آباراً تجريبية(wild cats) في منطقة شمالية نائية. تقع المنطقة البترولية الجديدة في الطرف المقابل للمنطقة الأولى، بين جون الكويت الصغير والحدود العراقية. وبعد النتائج المشجعة في الروضتين، بدأت أعمال الحفر في الصبيرية، الواقعة جنوب النقطة الأولى، ثم في بحرة Bahra في الجنوب الشرقي، وأخيراً في مطربة في الشمال الغربي. لقد كان المنقبون يعملون انطلاقاً من مركز رئيسي ليشكلوا سياجاً من الحفريات على شكل دائرة، تحدد الحقل الجديد.

وفي نهاية عام ١٩٥٨م، أو ١٩٥٩م، عندما تصبح منطقة الإنتاج هذه مربوطة بشبكة الأنابيب التي تنتهي إلى الساحل، سينتج هذا الحقل الجديد عدة ملايين من الأطنان الإضافية[١] .[٢٢٥]

يوجد مركز التخزين، ومكاتب إدارة الشركة في الأحمدي، على مسافة بضعة كيلومترات من حقول الإنتاج في البرقان، والمقوع. ويُضَخُّ البترول الخام حتى خزانات الأحمدي، ويمكن إيصاله من هناك إلى ميناء الأحمدي بسهولة ويسر، والأحمدي ميناء بترولي من أحدث الموانئ في العالم. وتوجد هناك أيضاً مصفاة تُلبي الحاجات المحلية، وتزود بالوقود الناقلات الكثيرة العاملة في الخليج. وقد كانت طاقتها مليوناً و٥٠٠ ألف طن، فرُفِعت إلى ٨ ملايين و ٥٠٠ ألف طن. ويمتلك ميناء الأحمدي أحدث تجهيزات الشحن، على الأرصفة أو تحت البحر، تستطيع خلال بضع ساعات من تحميل أكبر ناقلة بترول عاملة اليوم في العالم.

وإن استخدام الآلة خفض اليد العاملة البشرية إلى بعض العمال الضروريين للعمليات، التي تستمر بورديات تتناوب خلال أربع وعشرين ساعة. يستطيع ميناء الأحمدي، بتجهيزاته الحديثة، أن يشحن مليون برميل من البترول الخام في اليوم، وهذا رقم عالمي قياسي يصعب تجاوزه في هذا المجال. وفي عام ١٩٥٤م، شحن ميناء الكويت البترول وصدر أكثر من ٤٥ مليون طن من البترول الخام على متن ٢٤٩٧

(١) معلومات قدمها للمؤلف ممثل الشركة.

ناقلة، بمتوسط قدره ٧٠ ناقلة في اليوم الواحد. وكثيراً ما تستخدم أساطيل نقل البترول التي تبحر في الخليج العربي التسهيلات الموجدة في ميناء الأحمدي لملء خزاناتها بالوقود. وعلى الرغم من التطور الذي تشهده الموانئ والمصافي المجاورة، إلا أن ميناء الأحمدي لا يني يزداد أهميته.

وعلى الرغم من استخدام الآلة في العمليات استخدماً مطرداً، فإن أكثر من ٨ آلاف شخص يعملون في شركة الكويت أويل، بينهم ألف أوروبي وأمريكي. إن استثمار البترول، ناهيك عن أنه يوفر فرص العمل، والربح لقسم كبير من السكان؛ ويُحْدِث نشاطاً كثيفاً في مجال البناء، والأشغال العامة، وتوسعاً تجارياً، لازدياد الطلب في المجالات كلها، هو أيضاً سبب في غنى غير متكافئ، ولكنه يشمل كل الناس.

إن مدينة الكويت، ميناء رئيسي للدولة، وهي أيضاً مركز لإعادة التصدير، والترانزيت، للسلع الصادرة عن داخل الجزيرة العربية أو الواردة إليه. إن حركة الاستيراد [٢٢٦] والتصدير الناشطة، تدل على وجود تجارة خارجية تزداد حيوية يوماً بعد يوم. وناهيك عن البترول، تصدر الكويت الصوف، والجلود، واللؤلؤ. كما تبيع الورش البحرية في الإمارة المراكب للراغبين من الإمارات الأخرى على الخليج العربي. وتستورد الكويت المواد الغذائية بأنواعها، والتجهيزات الضرورية أو الكمالية: إن الكويت الغنية، تبادل ذهبها الأسود بمختلف أنواع السلع. ومنذ عدة سنوات، يتزايد حجم الواردات باطراد، وتقتسم الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا القسم الأكبر مما تستورده الكويت.

دولة نموذجية

إن الاتفاقات البترولية الجديدة، وإنتاج البترول الذي يتزايد بلا انقطاع، عجلا بالتحولات المذهلة في الكويت. فمنذ عام ١٩٥٣م، وجدت الشركات نفسها مضطرة

إلى أن تدفع للإمارة نصف الأرباح الخالصة التي تحققها. وكانت آلية اتفاقات ١٩٥١م تفرض ضريبة«بترولية»، تُحسب قبل حسم ضريبة الدخل، التي تدفعها الشركة في بلدها الأصلي، لتحصل الكويت على ٥٠٪ من الربح الصافي. وهذا هو النظام الذي تعبر عنه العبارة الأمريكية السمجة: نصف-نصف fifty-fifty.

وهذه الاتفاقات قابلة لأن يُعاد النظر فيها، إذا حصلت بقية البلدان المنتجة للبترول في الشرق الأوسط على شروط أفضل[١].

وتوظف موارد الأمراء الضخمة بذكاء. إن الشيخ سالم الصباح «حاكم مطلق مستنير»، قرر أن يصنع من بلده مثالاً للدولة العصرية. لذلك نجده يستثمر قسماً من عائدات البترول بقيم ثابتة على المدى المتوسط والبعيد، ويشرف على هذه الاستثمارات مجلس استثمار أُنشئ خصيصاً لهذا الغرض.

إن هذا السلوك[٢٢٧] يحول البترول المستخرج، الذي يمكن أن تجف آباره، إلى مصادر دخل جديدة. وبعد تخصيص قسم من الواردات للأسرة الحاكمة، والهبات التقليدية، وما يلزم لتسيير إدارة البلاد، يُخصص القسم الأكبر من العائدات لمشروعات ضخمة، دون أن تكون باذخة. والمثال التقليدي على هذه المنجزات، التي تغير نوع الحياة ومستواها لدى الكويتيين، هو محطات تحلية مياه البحر، التي تم بناؤها بتكاليف ضخمة. لقد كانت الكويت تحت رحمة العراق في حاجتها لمياه الشرب، ولما تحررت من ذلك، قبل الأمير ببناء قناة طولها أكثر من ١٠٠ كم، تحمل مياه شط العرب للإمارة. لقد أفلح الأمير، ولكن بتكاليف باهظة، من جعل الكويت العاصمة من أحدث العواصم في العالم، فبناها من جديد، وشق شبكة واسعة من الطرقات، وأنشأ الميناء، والمطار، والمستشفيات، والمدارس، وشبكة توزيع مياه

(١) تشهد الأوساط البترولية حالة هياج شديد منذ عام ١٩٥٧م، بعد الاتفاق الذي وقّع في إيران بين إنريكو ماتيي Enrico Mattéi، رئيس شركة إنت ناشيونالي إيدروكاربوري Ente Nationale Idrocarburi، وهي شركة بترول إيطالية، وسيجري الحديث عن هذا الاتفاق فيما سيأتي.

الشـرب، والغاز، و الكهـرباء، وشبكات الصـرف الصحي، والتكيـيف، كل ذلك، جـعل من القـرية القـديمة المهـجـورة، الغـافـيـة على مـينائهـا، جنـة على الخليج العربي-والأمور كلها نسبية.

لقـد خصص الشـيخ القسم الأعظم من التـمويل لتطـوير الخدمـات الصحـية والتعليمية. فالإمارة التي كانت قبل البترول لا تمتلك إلا مستشفى متواضعاً، أصبحت نموذجاً لا يدانى في الـتقدم الصـحي، وسكان البلاد المجاورة يأتـون للاستشـفاء في الكويت؛ فقـد بُنيت خمس مستشـفيات، مجـهزة بأحدث الأجهزة، تـعمل بإشراف جهاز ضخم من الأطباء والممرضين. وأُحدث في الوقت نفـسه ٢٥ مستوصفاً، تقدم العناية المجـانيـة في مخـتلف أنحـاء الإمارة. كـما أن شـركـة الكويت أويل تمتلك مستشفيات ومستوصفات خاصة بها.

والتعليم الذي انتشـر انتشاراً كبيـراً، هو أيضاً مجاني تمامـاً، شأنه شأن العناية الصحيـة. تلك هي السمات الأساسـية لهذه الدولة النموذجيـة، ولكن قلة من البلاد تستطيع الوصول إلى ذلك.

فالتـلاميـذ في الكويت، يلبسـون، ويأكلون، ويُعالجـون، مجـاناً خلال فـترة دراسـتـهم . وتمكنت الإمـارة في أقل من عـشـر سنوات أن تجـعل كل مـواطنيـهـا تقريباً-٩٥٪- ممن هم في سن التعليم، ينتظمون في المدارس. لقد أنشأت ٥٥ مدرسة ابتدائية، وإعدادية[٢٢٨] وتقنية، ووظفت أكثر من ١٠٠٠ أستاذ، وبلغ عدد التلاميذ أكثـر من ٢٠ ألف تلميذ، تلك هي الـنتيجة الإيـجابية للجـهود في مجـال التعليم. ناهيك عن أن عدة مـئات من الشباب الكويتي يتـابعون دراساتهم في البلاد الأجـنبية بمساعـدة المنح التي تقدمهـا لهم الدولة، في بريطانيا، وفي مصـر. وهناك أيضاً منح للدراسة التقنية، توزعها شركات البترول، التي تمتلك مراكزها الخاصة للتعليم التقني، والتأهيل المهني.

أسباب تدعو إلى القلق

إن التقدم الرائع الذي شهدته الكويت يحمل في طياته بوادر اضطرابات مستقبلة. إن هذا البلد الصغير، الذي اكتفى مادياً، ويشهد ظروفاً اجتماعية واقتصادية فريدة، كان عليه أن يستقدم في المجالات كلها تقنيين ومختصين أجانب. فالهيئة التدريسية تضم عدداً كبيراً من المصريين والفلسطينيين، الذين يشكلون في كل مكان «الطابور الخامس» للقومية العربية. وعندما يوكل أمر تربية الأجيال القادمة إلى مدرسين ذوي أفكار ثورية، يوحون للشبيبة بولاءات جديدة، حينئذٍ قل: على الأنظمة القديمة السلام.

إن الشبيبة الكويتية التي تبنت فكرة مجردة هي «القومية العربية»، تنظر بازدراء إلى الحدود التي تحيط بهذا المربع الرملي الذي يحكمه الشيخ العجوز، دون أن يلاحظوا أن إيديولوجية أصدقائهم القوميين لا تخلوا من الطمع بما لديهم. إن الشرور الناتجة عن ذلك يصعب تفاديها: إن طريقة الحكم البطريركية «للحاكم المطلق المستنير» في الكويت، محكوم عليها بالزوال مستقبلاً؛ ولكن بأي طريقة لا نعلم بعد. في عام ١٩٥٧م، صرح رجل يعرف الكويت حق المعرفة، فقال: إن الكويت ستثور بعد عشر سنوات. ويمكن أن تبدو المدة قصيرة، ولكن القضية الأساسية، والأكثر أهمية، هي معرفة ضد من ستقوم تلك «الثورة».

إن الكويتيين المشغولين بالأعمال وجمع المال، لا يعيرون كبير اهتمام لمغريات القومية العربية. وإن أصحاب رؤوس الأموال من الكويتيين، الذين يستثمرون أموالهم في البلاد العربية الأخرى، اتخذوا مبدأ الألمان شعاراً لهم:

«الأعمال قبل السياسة!» ولكن العمال، والمثقفين، وصغار البرجوازيين، كانوا منذ زمن أكثر استجابة [٢٢٩]للدعوة إلى معاداة البريطانيين، تلك الدعوة التي يروج لها أحمد سعيد على موجات راديو صوت العرب من القاهرة. إن رابط التبعية الذي

يربط الكويت ببـريطانيا شبـيه بالروابط المـماثلة في الخليج العربي؛ وهو أيضـاً سبب لإشعال الروح الوطنية، وحجـة يتمسك بها دعاة القومية العـربية. وقد كان للعدوان على بورسعيد، ولأحداث أخـرى، آثار مقلقة في الكويت. تمثلت في تخريب بعض المنشآت البترولية. ويفضل أمير الكويت أن يظل مستقـلاً عن العراق والمملكة العربية السعودية، والبـلاد العربية الأخرى. وهو اليوم كما كـان بالأمس، في أمس الحاجة للحماية البريطانية. ولكن هذه الحماية تحمل بذور ضعفها فيها.

الحمايـــــة البريطانيـــــة

أنشأت جماعة العتوب مـدينة الكويت في القرن الثامن عشر، وقد جاءت تلك القبيلة من داخل الجزيرة العـربية، يشدها إلى المكان الموقع الرائع لجون الكويت. وفي عام ١٧٩٣م، فتح التجـار البريطانيون فيها وكـالة تجارية، وفي عام ١٨٢١، أقام في جزيرة فـيلكا، قبالة الساحل مـقيم سياسي بريطـاني. ثم وقعت الكويت تحت سلطة الباب العالي في عـــام ١٨٢٩م، واعترفت بها السلطات العثـمانية إمارة مـستقلة في عـام ١٨٨٠م، وفي عـام ١٩١٤م اعتـرفت لهـا بريطانيـا بمثل ذلك أيضـاً. وتحكم الكويت منذ عام ١٧٥٦م أسرة آل الصباح ، ذات الأصول النجدية.

وعلى الرغم من النفوذ البريطاني الكبير في نهـاية القرن التاسع عشر، حاولت تركيـا احتلال الكـويت عام ١٨٩٨م، وعقـد الشيخ اتفاقـية ٢٣ يناير«كـانون الثاني» ١٨٩٩م، مع بريطانيا، خوفاً من المطامع العـثمانية، وهي اتفاقية تشبـه الاتفاقية التي وقـعت مع البحـرين عـام ١٨٩٢م. وتفرض هذه الاتفـاقـية على الموقـعَـيْن عليهـا الالتزامـات نفسها، التي تفـرضها الاتفـاقات الموقعة مع إمـارات الخليج الأخرى: إذ تعهدت الكويت بموجـبها بعدم إقامة عـلاقات مع قوة أجنبية أخرى، وعـدم التصرف بأي طريقة كانت بأي قسم من أراضـيها، دون موافقة الحكومة البـريطانية، مقابل أن

تقوم بريطانيا بحمايتها دون مقابل. وفي عام ١٩٠٤م، عينت بريطانيا أول مندوب سياسي لها في الكويت. ناهيك عن أن الشيخ تعهد في رسالتين متتاليتين في عامي ١٩١١ و ١٩١٢م بعدم منح [٢٣٠] أي امتيازات بترولية أولؤلوئية، إلا بموافقة الحكومة البريطانية. وقد تحدد موقف بريطانيا من الكويت في مذكرة صدرت في ٣ نوفمبر«تشرين الثاني» ١٩١٤م، وعدت الحكومة البريطانية فيها بدعم الشيخ، واعترفت باستقلال الإمارة في ظل الحماية البريطانية.

والحق أن الكويت استطاعت بفضل هذه الحماية، أن تظل مستقلة، على الرغم من غارات السعودية والعراق، وما مارستا من ضغوط في أعوام ١٩١٩م و ١٩٢٢م و ١٩٢٩م. لقد رُسِّمت حدودها بفضل جهود المفاوضين البريطانيين في العقير، بين ديسمبر«كانون الأول» ١٩٢٢م و يناير«كانون الثاني» ١٩٢٣م. لقد كان حينئذٍ الملك عبد العزيز آل سعود ما يزال مرتبطاً باتفاقية ١٩١٥م، وكان نفوذ بريطانيا في المملكة في عنفوانه بسبب وجود فيلبي؛ وكان العراق والأردن تحت الانتداب البريطاني، والسلطة فيهما ليست في أيدي الحكام العرب. وكان الإدارة المدنية الهندية، ووزارة الخارجية البريطانية، تتنافسان منافسة حامية الوطيس لحماية مصالحها. وظلت الكويت، المبتهجة بالخدمات البريطانية، محتفظة باستقلالها الداخلي التام، أما الشؤون الخارجية والدفاع فقد كانت مهمة قوة الحماية.

الكويت واقتصاد المملكة المتحدة

خلف الشيخ عبد الله السالم الصباح، الحاكم الحالي للكويت، في عام ١٩٥٠م، ابن عمه أحمد الجابر الصباح. وفي عام ١٩٥٤م، وبعد عودته من أوروبا، إذ زار لندن، وباريس، وروما، كاد الشيخ عبد الله أن يذهب ضحية انقلاب سياسي، كان وراءه عبد الله المبارك، أحد أقربائه، وقائد قوات الأمن. ولما كان المبارك يطالب بالإسراع في الإصلاحات، فقد قرر الاستيلاء على الحكم؛ ولكن

الأمير، وعـد بتحديث البلد دون تأخـير، فجرت مـصالحة عامة، وعـادت المياه إلى مجـاريها. وكانت النتـيجة الرئيسـية لهذه الأحـداث ازدياد نفوذ عبـد الله المبارك في الإمـارة. لأن الشيخ، على الرغم من نظامـه، ذي النمط الفـرد، يستـعين في الحكم بمجلس استشـاري، يساعده في الحكم، وهذا المجلس مؤلـف من بعض أفراد الأسرة الحاكمة، الذين يتقلدون في الوقت نفـسه مناصب وزارية. ويبدو أن الكلمة العليا في هذه الحكومة التي هي أرستوقراطية[٢٣١] أكثر منها ملكية، هي لقائد قوات الأمن.

إن الكويت نظرياً هي ملكيـة دستـورية، وقد أنشـأ الشيخ في يونيـو«حزيران» ١٩٣٨م مجلساً تشريعـياً استشارياً. ولما أعلن قسم من أعـضائه ميلهم إلى الاتحاد مع العراق، وتمكنوا من السـيطرة على المجلس، سارع الأمير إلى حله. وجـرت محاولة أخرى في عـام ١٩٣٩م، وانتهت إلى النتـائج نفسـها. انحل المجلس، وزُجَّ بزعـماء المحاولة في السجن، وانفـجرت في أنحاء البلاد اضطرابات عنيفة دامـية. حينئذٍ سن الشيخ دستوراً، يقضي بتشكيل مجلس تشـريعي جديد، من عشرين عضواً ، ينتخب نصفهم، والنصف الآخر يُعَيَّن تعيناً. ولكن هذا الدستور لم يُنفذ أبداً.

لقد كان في الإمـارة تيار قوي، يدعو إلى الانضمام إلى العـراق، أعضاؤه من الطلاب الذين تلقوا علومـهم في العراق. ويعارضون حـكم الأمير الفردي مـعارضة شديدة، وكانت تُدير هذه المعارضة من الأراضي العراقية، الجمعيةُ العربية في الخليج، التي تأسست في البـصرة، في يناير«كانون الثاني» ١٩٣٩م. كانـت مطالب المعارضة تنصب في مـعظمها على الجـوانب الاجتـماعيـة، والاقتصـادية، وكان من مـصلحة الكويت الفقيرة حينئذٍ، أن تتحد مع العراق.

وعشـية الحـرب العالميـة الثانيـة، كانت الإمـارة منقسـمة بين أنصار الـشيخ، الحريصين على استقلال بلادهم، وأنصار المعـارضة المطالبين بالانضمام إلى العراق[١] .

(١) في الأصـــل Anschluss أنشلوس، وتعني إلحـــاق بلد بآخـــر علـى غـــرار ضم النمسـا إلى ألمـانيا عام ١٩٣٨م(المترجم).

إلا أن اكتشاف البترول، جعل الكويت بلد الأساطير والثروات، وأصبح الطلاب الشباب رجال أعمال متقدمين في السن، في بلد منظم، أصبح نموذجاً للازدهار المذهل. وليس هناك ما يشير إلى أن هذا التقدم الشامل، ورغد العيش، والغنى، سيُجنب الإمارة الرائعة قيام ثورة عنيفة. إن المشكلات السياسية في الوقت الحاضر، ليست هي المشكلات الجوهرية؛ ولكنها قد تصبح بسرعة كذلك، وإن أحد العوامل الرئيسية في ذلك، هو تنامي العداء لبريطانيا في العالم العربي.[٢٣٢]

إن قضية المحافظة على النفوذ في الكويت هي، نسبياً، إحدى أهم القضايا في سياسة بريطانيا في الشرق الأوسط.

تزود الإمارة الصغيرة بريطانيا بنصف حاجتها من البترول. وتدفع بريطانيا للكويت ثمن هذا السائل الضروري بالجنيه الإسترليني، مما يوفر على المالية البريطانية مبالغ طائلة من القطع النادر. ناهيك عن أن الكويت تمتلك في بريطانيا مبالغ كبيرة من الاحتياط المالي؛ وأرباحها تتحول إلى أسهم تُستثمر في سوق لندن المالية، وليس من أحد في لندن يجهل أن مجلس الاستثمار الكويتي هو أكبر مثتمر فردي. وإن المشاريع الضخمة، التي تُنفذ في الإمارة، تنفذها شركات عديدة، وتحصل الشركات البريطانية على حصة الأسد من تلك المشاريع.

إن الحكومة البريطانية تمتلك عن طريق حصص وزارة البحرية فيها على أكثرية الحصص في شركة بريتيش بتروليوم، التي تقتسم ملكية شركة الكويت أويل(بصوت واحد مرجح). وعلى الرغم من أن مصالح شركة بريتيش بتروليوم موزعة في جميع أنحاء العالم، إلا أن أهم تلك المصالح متركزة في الكويت، وهي قضية غريبة، وغير مريحة، تضع أكبر شركة بريطانية خالصة، وواحداً من أكبر الاتحادات الاحتكارية العالمية تحت رحمة سياسة لا يمكن التكهن بتطوراتها.

ولذلك نرى القائمين على شركة بريتيش بتروليوم حذرين، وبالغي التأثر بالسياسة البريطانية في الخليج العربي، لأن الامتيازات البترولية الأخرى تمتلكها شركة

العـراق بتروليـوم، التي تمتلك شركـة بريتـيش بتروليـوم ٢٣,٧٥٪ منها. وفي عـام ١٩٥٦م، بلغ إنتاج شـركة بريتيش بتـروليوم في العـالم إلى ٤٩ مليون و ٥٠٠ ألف طن: أكثر من نصفها-٢٧ مليون طن- يأتي من الكويت.

إن الوجود البـريطاني في الخليج العربـي كله مهدد داخليـاً وخارجـياً، وعلى رؤوس الأشهاد، ويعـاد النظر فيه. وأظنني برهنت على أن خروج بريطانيـا نهائياً من هذه المنطقة أمـر مستـبعـد تماماً. كلما تقـدم الزمن، أصبح القائـمون على السيـاسة البريطانية في هذه المنطقـة من أنصار إجراء تعديل جذري في المبادئ التي تـقوم عليها هذه السـياسـة. ولكن مناهضي النفوذ البـريطاني، سواء كـانوا مصـريين [٢٣٣] أو سعوديين، أو سوفـيتيين، أو أمريكيين، يجرون حسـابات خاطئة، إنْ هم لم يأخذوا بعين الاعتبار في لعبتـهم، أن بريطانيا مستعدة، كالنمر الجريح، للقتـال بشراسة كبيرة كي تتمكـن من إبقاء سيطرتهـا على بترول الخليج الـعربي. إن الخليج بالنسـبة إلى بريطانيا هو كالجزائر بالنسبة إلى فرنسا، على المستوى الشعوري.

لقد تحدثت مع كـثير من البريطانيين الأذكيـاء، المطلعين على شؤون بلادهم في الشرق الأوسط، واتضح لي أنهم يقاسمـونني القناعة نفسها باستحـالة الاستمرار في السيـاسة القديمة. إن حدود بريطانيـا في الخليج العربية، بين الكويت ومـسقط، ولم تكن هذه الحدود مـهددة أبداً بهذه الخـطورة كما هي عليـه اليوم. وإذا استـمرت في تطبيق الإجـراءات التي صنعت قوتـها في القرن التاسع عشر، فإنهـا تعرض نفوذها في المنطقـة لخطـر التلاشي أمـام القوى الجـديدة في المنطقة، التي لم تملك الـقدرة للسيطرة عليها.